نزار عيسى

لن تعد مكاناً تفر إليه

رواية

عصير الكتب

لن تجد مكاناً تفر إليه

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

الطبعة الأولى: يونيو / 2021م
رقم الإيداع: 2021/09238م
الترقيم الدولي: 978-977-992-162-4

المؤلف: نزار عيسى
تدقيق لغوي: مهند ماهر جندية
تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

نزار عيسى

لن تجد مكاناً تفر إليه

رواية

عصير الكتب

١

فتح الرجل عينيه على سماء أشد زرقة وأكثر صفاء من أيِّ سماء رآها في حياته.

كانت هناك سحابة وحيدة وكبيرة تدور في الأرجاء، رقيقة مثل النسيم الذي تهادت على أنغامه كسفينة شراعية، الشمس قرص ذهبي متَّسق الملامح فاقت في تألقها أيَّ قطعة مصاغ تنعم بمرآها في حياته، كان بمقدوره أن يحدق إلى نورها مباشرة من دون أن يضطر إلى إزاحة عينيه، لكنه لم يُطِل النظر إليها طويلًا، فقد كان هنالك المزيد من الأشياء الجميلة التي تنتظر منه التفاتة.

عدَّل من وضعية جلوسه فوق المقعد المُخملي الذي احتوى كامل جسده بحنان باذخ، أزاح الوسادة الطرية من تحت رأسه واستند إليها بذراعه، في حين شرع يتأمل رمالًا ذات بياض ناصع مثل حبات لؤلؤ صغيرة، من خلفها امتد بحر شفاف بأمواج هادئة، وقد انعكست على سطحه أشعة طيفية لألوان كثيرة وجميلة كما لو أن قوس قزح قرر أن يأخذ جولة في أرجائه، وفي نهايته جدار وهمي تزينه ألوان تتمازج مع بعضها لتُشكِّل مشهدًا فاق في روعته كل وصف يعرفه.

تساءل عمَّا إذا كان قد قرر أن يخرج في رحلة ونَسِيَ الأمر، لكن كيف يمكن أن يكون ذلك منطقيًّا؟ حاول أن يَحْزِر ماهية المكان الذي كان موجودًا فيه، كان قد زار الكثير من شواطئ العالم فيما مضى، ولكن هذا المكان لم يكن يشبه أيًّا منها، يستحيل أن يجد مكانًا في العالم بهذه المثالية.

لم يكن الشخص الوحيد الذي كُتِبَ له أن يتنعَّم بهذه الروعة، هناك المئات من الأجساد الطرية التي تترامى من حوله في كل مكان فوق رمال بلون الفضة، فتيات من مختلف الأصناف والأشكال، القاسم المشترك الوحيد هو أن أيًّا منهن يمكن أن تسجل أرقامًا كاسحة على أكثر مقاييس الجمال صرامة.

شعر بأن هناك شيئًا خاطئًا، لكن حين نظر مليًّا لم يجد أيِّ شيء خاطئ.

التفت لينظر باتجاه فتاة شقراء كانت تستلقي قريبًا منه، استغرق الأمر منه لحظات حتى يفيق من سطوة الجمال الآسر الذي ضربه مثل صاعقة، ازداد ولعه اشتعالًا حينما قاطعت شروده بعينين ناعستين وثغرٍ باسمٍ، سألها بارتباكِ شخصٍ مسحورٍ:

– عذرًا، ما اسم هذا المكان؟

الضحكة التي صدرت عنها كانت واحدة من أعذب الأنغام التي سمِعَها في حياته، صوتها لم يكن يقل طَرَبًا حينما قالت: «أنت في الجنة».

الجنة! ترى.. هل كان مخطئًا؟ هل هذه الجنة التي كان الجهلاء يتحدثون عنها؟ إذا كان الأمر كذلك فإنه وجد طريقه إليها بطريقة ما، هو وذلك الشخص ذو المظهر المخيف الذي يستلقي على مقربة منه، والذي تولَّد لديه شعور قوي بأنه على علاقة وثيقة به.

الرجل الآخر كان مسترخيًا إلى حدِّ الثمالة، وبجواره فتاتان تخلبان لُبَّ أيِّ رجل عاقل، إحداهما عن يمينه والأخرى عن يساره، شقراوان ببشرة ذهبية داكنة، شعور ناعمة وطويلة، وعيون واسعة وملونة، وبشرة مرمرية، وأجساد مشدودة، ثلاثتهم يرفعون أصواتهم بالغناء حينًا وبالضحك حينًا آخر. في غمرة فرحته ومرحه المتواصلين، التفت الرجل الآخر إليه وهتف وقد ارتسمت على وجهه معالم سعادة طاغية:

– سيدي، هذا المكان رائع، لن أمانع في البقاء هنا إلى الأبد.

افترَّ ثغره عن ابتسامة عريضة جدًّا، لديه الكثير من الأسئلة، لكنه لم يكن يهتم بمعرفة الإجابات في الوقت الحالي، عاد ليستلقي على ظهره وينظر إلى السماء. هو أيضًا لن يمانع البقاء في مكان كهذا إلى الأبد. فتح الرجل عينه مجددًا، والآن أصبح يعرف أنه لم يعد يحلم. الثقل الذي في رأسه أخبره بذلك بوضوح، ومضات مؤلمة أشد تأثيرًا من ألا تكون حقيقية، زَفَرَ بضيق، أخذ نفَسًا عميقًا، تحول النفَس إلى شهقة. تساءلت كل ذرة من خلايا عقله بشغف عن ماهية المكان الذي استيقظ فيه.

الرؤية كانت ضبابية في البدء، ثم بدأت المشاهد تتضح تدريجيًّا، أول ما قابله هو سقف منخفض ومتشقق، وطلاؤه غاية في السوء. طلاء لونه أسود! حالة الجدران لم تكن أحسن حالًا من سقفها، لا يصدق أن بإمكانه أن يشاهد سقفًا أو جدرانًا تحمل هذا اللون الغريب، الذي يبعث على الكآبة، لم يكن غريبًا أن يتزعم السواد قمة هرم الشر والتهديد، ويُتوَّج رمزًا للحزن والفواجع، بدا الأمر كما لو كان في غرفة تعذيب تعمل بالاحتراق البطيء. الصدوع والسواد القسري وصلابة الأرض تحت عظامه، كلها علامات لم تكن تبشر بخير على الإطلاق، لم يستغرق منه الكثير من الوقت ليتمنى لو بقي عالقًا في حلمه السعيد.

ومع مرور الوقت، بدأت معالم الأشكال الباهتة تتضح رويدًا رويدًا. غرفة صغيرة مربعة، جدرانها سوداء قاتمة وسقفها منخفض، وهناك فتحة صغيرة فوقه بحجم كف اليد تقريبًا، ويصدر منها ضوء غريب الشكل ينفذ طولِيًّا مثل عمود مصنوع من نور، هذا كل ما تمكن عقله من تسجيله بعد دقيقة كاملة، ولكنه يستغرق وقتًا أطول لاستيعابه. أغمض عينيه، أخذ نفَسًا عميقًا، حاول أن يركز أفكاره في نقطة ممكنة الفهم.

ما الذي يحصل، وما هذا المكان؟ ثم، لماذا لا يتذكر أيَّ شيء؟ لم يكن يتذكر حتى اسمه!

بحث في جيوب بنطاله عن أيِّ إثبات شخصية، ثم في جيب قميصه، ثم في جيوب بنطاله مجددًا، جميع جيوبه كانت فارغة، لكن مفاجأة أخرى مفزعة كانت بانتظاره.. حين حاول أن يحرك ساقيه ليعدل من وضعية جلوسه، ساقه اليمنى لم تستجب بالشكل المطلوب، أعاد الكَرَّة مجددًا.. لكن دون جدوى، شيء ما كان يعيق حركة قدمه.

آه، تنهد بأسى، أولى الأمور قد تبدَّت له الآن، لقد كان محتجزًا ضد إرادته، لكن اكتشافه لهذه الحقيقة لم يكن مفيدًا في التخفيف من حدة توتره الذي كان في تصاعد مستمر. تأمل السلسلة الحديدية السوداء التي كان أحد طرفيها يحيط بقدمه من منطقة الرسغ مثل سوار وتمتد لتنتهي بداخل الجدار الذي كان يستند إليه، أمسك بالسلسلة بيد واحدة في أول الأمر، ثم بكلتا يديه، وحاول أن يسحبها بكل ما أوتي من قوة، صرخاته الأولى كانت تعبر عن الشدة والعزيمة قبل أن تتحول سريعًا إلى تعبير عن اليأس، في النهاية انتهى به الأمر إلى ألم في الظهر والذراعين، ولهاث مُتعِب، وأعصاب وعضلات مشدودة، في حين بقيت السلسلة في مكانها من دون أن تتزحزح قيد أُنْملة.

- لا تتعب نفسك.

أطلق شهقة فزعة، كاد قلبه أن يقفز من بين ضلوعه، نظر باتجاه الصوت الذي خاطبه، والذي كان قادمًا من الجهة المقابلة من الغرفة. تابع الصوت قائلًا:

- لقد حاولت قبلك ولم أفلح.

أخذ ثواني إضافية كي يلتقط أنفاسه، وليطرد كل أثر لفزعه الآني، بهدوء تأمل الفتاة التي كانت متكورة على بعد أربعة أمتار أمامه مثل بيضة آدمية، كانت تستند إلى الحائط وتسند ذقنها إلى ركبتيها، وتابعت كلامها بالوتيرة الهادئة ذاتها:

- ربما تكون أقوى مني بدنيًّا بكثير، لكنك لن تستطيع الخلاص من قيودك، أنت محتجَز هنا مثلي تمامًا.

بينما كان الرجل يتلفت حوله ليلقي نظرة على الغرفة بكامل محيطها، إذ أطلق لسانه سلسلة من الأسئلة البديهية:

- مَن أنتِ؟

- ليست لديَّ أيُّ فكرة.

- ما هذا المكان؟ ما الذي حدث؟

- ليست لديَّ أيُّ فكرة.

- هل نحن مختطفون؟

- ليست لديَّ أيُّ فكرة.

ترك الجدران التي لم تمنحه الكثير وعاد ليتأملها مجددًا، فتاة نحيفة ببشرة بيضاء ووجه صغير ودقيق الملامح، تنتعل حذاءً رياضيًّا أبيض كبير الحجم، وتلبس بنطال جينز لونه داكن، وقميصًا واسعًا وطويل الأكمام، حاول أن يتذكر فيما إذا كان قد رآها من قبل، لكن ذاكرته لم تسعفه بأيِّ شيء، سواء فيما يتعلق بهذه الفتاة أو في أيِّ شيء آخر. قال أول شيء خطر بباله:

- لا تخافي، سوف نخرج من هذا المكان.

ثم أبعد بصره عنها كأن ما قاله كان كافيًا لطمأنتها، وعادت عيناه تصول وتجول في أرجاء الغرفة بطولها وعرضها لمرة أخرى إضافية. هناك شيء خاطئ. تتبادر الفكرة إلى ذهنه في كل مرة يجول فيها ببصره في أرجاء الغرفة الخانقة، سواد وصدوع وتشققات وتعرجات، لا أثر لأيِّ أدوات أو متعلقات، ولا وجود لأيِّ قطعة أثاث. مكان فارغ بما تحمله الكلمة من معنى.

حرَّك جسده إلى الأمام قليلًا حتى أصبح بإمكانه أن ينظر إلى ما تطل إليه تلك الفتحة الغريبة أعلى رأسه، لكن النور القادم منها لم يسمح له بأن يرى أيَّ شيء. ثم خطرت بباله فكرة، تملكته لدرجة أنه كان على وشك أن ينفجر ضاحكًا، كأن اكتشافه لها سيجعل منها أمرًا واقعًا. نظر باتجاه الفتاة وسألها وهو يبتسم:

- هل هذه خدعة؟

- خدعة؟

- أحد برامج المقالب، هل هذه هي حقيقة الأمر؟ إذا كان الأمر كذلك، فقد تفوقتم على أنفسكم فعلًا.

تمنى في قرارة نفسه لو أن الأمر كذلك، مقلب سخيف خطط له شخص تافه كي يُضحِك أشخاصًا آخرين يشعرون بالملل وليس لديهم ما يفعلونه عدا عن التسمُّر أمام شاشات التلفاز، وأن كل ما حوله هو مجرد ديكور متقن يستخدم للزينة ويمكن أن يزول في لمحة بصر، لكن الفتاة نسفت كل ذرة أمل لديه حينما قالت بنبرة خالها صادقة:

- أتمنى حقًّا لو كان الأمر مجرد مقلب.

نظر إليها مطوَّلًا دون أن يتكلم، ثم عاودت الظنون والهواجس لتهاجم أفكاره المتعثرة. كانت محقة، حجم الورطة التي كان يقبع بين أحضانها أكبر بكثير من أن تكون مجرد خدعة، لكن شيئًا في عقله ما زال يُلِحُّ عليه بأنه يوجد أمر خاطئ في هذه

اللوحة السوداوية التي يجد نفسه طرفًا فيها دون أن يختار ذلك. على الرغم من غرابة المشهد، فإن شيئًا ما ينقصه، شيءٌ ليس في مكانه.. لكن يُفترَض به أن يكون في مكانه. ثم تنبه أخيرًا إلى الأمر الذي كان قد غفل عنه، شعر بأن قطارًا سريعًا سحق جمجمته للتو. يستحيل أن يكون ذلك ممكنًا. عاد ليتلفت في الأرجاء بحركة سريعة، انتابه ذعر حقيقي، عيناه مسحتا الأرض والسقف والجدران الأربعة، ولكنه لم يعثر له على أثر، اتسعت حدقتاه، عاود البحث مجددًا وهو يتمتم قائلًا:

- مستحيل.

- لن تعثر عليه، لقد بحثت قبلك، وشعرت بالصدمة ذاتها التي تمر بها الآن.

- كيف يكون هذا ممكنًا؟

قالت الفتاة بنبرتها التي على الرغم من هدوئها، فإنها كانت قادرة على أن تخترق طبلة أذنه:

- سيدي، أنا مثلك لا أفهم ما الذي يحدث، لكن هذا الأمر حقيقي، هذه الغرفة لا توجد فيها أيُّ أبواب.

عند هذا الحد أفلت زمام أعصابه لأول مرة، صرخ بصوت مدوٍّ:

- اللعنة على هذا الأمر، كيف دخلنا إليها إذن؟

لكنها اكتفت بِرَدٍّ هادئ للغاية:

- ليست لديَّ أيُّ فكرة.

2

طرق الرجل على الجدار بجانبه مجددًا. كان صلبًا للغاية، خرسانة لم يسبق له أن رأى مثلها، حتى يُخيَّل إليه أنها من كوكب آخر.

– هل أنتِ متأكدة من أنكِ لا تملكين فكرة عن هوية الأشخاص المسؤولين عن وجودنا في هذا المكان؟

– لا أعرف، لا أذكر أيَّ شيء، لا أذكر اسمي حتى.

قال من دون أن يصرف انتباهه عن الجدار:

– أنا مثلك تمامًا، لا أذكر أيَّ شيء.

– ما الذي تبحث عنه؟

توقفَ عن الطرق والتفتَ إليها مستفهمًا.

– ماذا قلتِ؟

– لِمَ تستمر في الطرق على الجدار؟

– لأنني أحاول أن أفهم كيف دخلنا إلى هنا.

– كيف يمكن أن تعرف؟

– لستُ متأكدًا بعدُ، يفترض أن هنالك بابًا سريًّا، لكن السواد الذي يكسو الجدران جعل من رؤيته أمرًا متعذرًا، لن نعثر عليه إلا بهذه الطريقة، في حال كانت هنالك طبقة رقيقة أو مصنوعة من مادة مختلفة؛ معدن أو خشب، يمكنني العثور عليها إذا ما كانت قريبة من متناول يدي.

لكن نيران حماسته أُخمِدت حين انتهى من كامل المساحة التي يسمح له قيده بالوصول إليها، قال بخيبة أمل:

– لا شيء.

– توقعتُ ذلك.

– لمَ لا تحاولي من جهتكِ؟ اطرقي على الجدار من جميع الجهات، في حال عثرتِ على باب سِريٍّ فإن صوت الطَّرَقات سيبدو أجوف ومختلفًا، يمكنكِ أن تميزي الفرق.

قالت بقنوط:

– لا أظن أنني سأعثر على أيِّ شيء.

قال بإلحاح:

- لا تيأسي، لن نخسر شيئًا.

- حتى وإن عثرتَ على باب سِريٍّ مثلما تقول، كيف سنتحرر من القيود؟

- جربي فقط، بعدها يمكن أن نفكر في أمر ما.

أطاعت الفتاة، التفتت باتجاه أقرب الجدران إليها، وبدأت تطرق عليه وهي تصيخ السمع باهتمام، حاولت الوصول إلى أبعد مدى ممكن، لكنها انتهت سريعًا.

- هل وجدتِ أيَّ اختلاف؟

- مطلقًا، جميعها بالدرجة ذاتها من الصلابة.

زفر الرجل، ثم قال وهو ينظر إلى الجدار الذي في الاتجاه المقابل:

- الباب إذن موجود هناك، ليس بمقدورنا الوصول إليه.

عادت الفتحة الصغيرة في الأعلى لتلفت انتباهه، وقف وتقدم إلى أقرب نقطة ممكنة ونظر مجددًا، حاول أن يتجاهل وجود تلك الإنارة الغريبة التي كانت أشد سطوعًا من أن يكون مصدرها الشمس، وأشد نقاء من أن يكون مصدرها صناعيًّا، وقف على أطراف حذائه ومد يده إلى الأعلى بأقصى ارتفاع ممكن، تمكن من أن يلمس حافة الفتحة والسقف، قال معلقًا:

- أكره السقوف المنخفضة، وهذا السقف منخفض جدًّا.

قالت الفتاة وهي تضع يدًا على خدها في وضعية يأس مبكر:

- أنا أكره كل شيء في هذا المكان.

نظر إليها بإشفاق، ثم قال:

- سأجد حلًّا يُخرجنا من هنا.

حاول أن ينظر من الفتحة مجددًا لعله يشاهد شيئًا مألوفًا، لكن النور كان له بالمرصاد؛ يَسدُّ عليه كل الاتجاهات التي حاول أن يَنفَذ ببصره من خلالها، بدا الأمر أشبه بالتحديق إلى شعلة لهب لا تنطفئ أو فتيل لمبة مضاءة بفولتية عالية إلى حدِّ الصداع. أذعن في النهاية، وعاد ليقعد مُسندًا ظهره إلى الحائط. كان بحاجة إلى التركيز، عليه أن يحدد ما الذي يجب عليه فعله كي يخرج من هذه الورطة، ولكن عليه أولًا أن يعرف كيف وقع في هذه الورطة في المقام الأول، والأهم أن يعرف مَن هو المتسبب بها أساسًا، ولِمَ هذه الفتاة موجودة معه. أخرجته الفتاة من حبل أفكاره حينما سألته:

- ما الذي تفكر فيه؟

قال وهو يحاول إخفاء امتعاضه حتى لا يؤثر في معنوياتها التي افترض أنها منخفضة سلفًا:

- أحاول أن أتذكر أيَّ شيء عن نفسي وعن سبب وجودي هنا.

- سوف تبدأ في استعادة المشاهد تدريجيًّا.

نظر إليها باهتمام وهو يقول متلهفًا:

- حقًّا؟ هل تذكرتِ أيَّ شيء؟

- ليس تمامًا، أرى مشاهد من حياتي، ولكنني لستُ قادرة على فهمها بعدُ.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أن الذاكرة تعود إليَّ مثل ومضات سريعة ومتفرقة، ما زلتُ عاجزة عن الربط بينها.

فكَّرَ قليلًا في كلامها، ثم قال:

- لا بد من أنهم أعطونا مخدرًا من نوع ما، شيئًا يتسبب في فقدان ذاكرة مؤقت.

ثم حاول أن يفكر في مخدر لديه مثل هذا التأثير القوي في الدماغ، لكن الفتاة كانت تفكر في أمر آخر مختلف، قالت:

- هل أنتَ متأكد من أن الباب موجود هناك؟

- بالتأكيد، كل ما هنالك أنهم أخفوه جيدًا تحت هذا الطلاء الكئيب.

لكن فكرة لمعت في رأسه للتو، تابع:

- أيًّا كان مَن احتجزنا في هذا المكان اللعين، فقد أراد لنا أن نبقى بعيدين عن الباب قدر الإمكان.

كررت الفتاة رأيها الأول بنبرة تحمل الكثير من العجز وقلة الحيلة:

- المشكلة تظل نفسها، لن نتمكن من الخروج من الباب بأيِّ حال، حتى لو كنا نعرف مكانه.

ثم أمسكت بالسلسلة التي تُقيد كاحلها الأيمن دلالةً على صحة كلامها.

قال الرجل:

- هذا بالضبط ما أردتُ أن أوضحه، هذا يعني أن وجودنا بالقرب من الباب بحدِّ ذاته يمكن أن يسبب لهم مشكلة.. حتى وإن لم نتمكن من الفرار.

لم تفهم الفتاة ما الذي يرمي إليه؛ لذا تابع موضحًا فكرته:

– قد لا نكون محتجزين ببقعة نائية أو على مسافة بعيدة عن الناس، ربما أن مَن وضعنا هنا خشي من أننا في حال تمكنا من الوصول إلى الباب يمكن أن نصدر ضجيجًا كافيًا لإثارة انتباه شخص ما في الخارج فيُنجدنا؛ ولهذا السبب قيَّدنا بعيدًا عنه، لا يمكنني التفكير في أيِّ سبب آخر لوجود القيود.

لم يبدُ عليها الكثير من الاقتناع، ولم تُجارِه في آماله الضعيفة، قالت بتشاؤمها التلقائي:

– لا أظن أن أحدًا سيُنجدنا من هنا.

– ينبغي أن تكوني أكثر تفاؤلًا، طريقتنا في التفكير ستلعب دورًا حاسمًا كي ننجو، ونحن لن نخسر شيئًا بكل الأحوال.

– ما الذي يمكن أن نفعله؟

– شيء واحد فقط؛ أن نصرخ.

نظرت إليه باستغراب، قال مؤكدًا:

– سنصرخ بأعلى صوتنا، ربما تصل أصواتنا إلى الخارج.

تأملته الفتاة وهي تحاول أن تحدد فيما إذا كان ما يقوله ممكنًا، لكنه قال بإلحاح:

– ما رأيكِ؟ هل نحاول.

تنهدت، قالت أخيرًا:

– لِمَ لا؟ كما قلتَ أنت، لا يوجد ما يمكن أن نخسره.

أخذ كلاهما نَفَسًا عميقًا، ثم بدآ في الصراخ.

المشهد

غرفة واسعة شبيهة بمستودع مهجور، جدران رمادية وباهتة تغزوها الرطوبة، تخلو من الأثاث إلا من كرسي جلس عليه رجل في أوائل الخمسينيات من العمر ولكنه بدا أكبر سِنًّا، هزيل وبوجه نصفه مشوه من أثر حرق قديم، وبلحية طويلة يتخللها شيء من البياض، ملابسه ممزقة والجروح تنزُّ من أجزاء متفرقة من جسده، وأمامه يقف رجل أصلع ضخم الجثة، ملامحه أقرب إلى القبح بجبهة عريضة وحاجبين كثيفين ونظرة قاسية، ومن خلفه يقف رجلان آخران قريبًا من الباب، وأحدهما يُدلِّك قبضته بعد أن انتهى للتو من توجيه وابل من اللكمات إلى الرجل المقيد. قال الضخم بنبرة جافة:

– مَن أيضًا يعرف عن الأمر؟

أخذ الرجل المقيد كامل وقته ليطلق أنينه ويلتقط أنفاسه، كان الدم يسيل من فمه مثل مجرى نهر ضيق. كرر الضخم بحدة:

– أخبرنا بما تعرفه وسندعك تذهب في حال سبيلك.

قال الرجل بنبرة بطيئة ولاهثة في آن واحد:

– لا أعرف ما الذي تتحدث عنه.

– لا تحاول أن تتذاكى معنا، هل أشركتَ أحدًا آخر فيما تظن بأنك تعرفه، أم أنك اخترت أن تكون حكيمًا طيلة مدة هربك، واحتفظت بشكوكك لنفسك؟

– ما زلتُ لا أعرف عما تتكلم.

كان الرجل الضخم يشعر بالحيرة في داخله، يقف في مكان وسط بين مُصدِّق ومُكذِّب، كان قد أمضى سنوات في البحث عن الرجل الذي يجلس أمامه مثل فزاعة نسيت كيف تكون مخيفة، والذي كان بعيدًا كل البعد عن الصورة التي رسمها في ذهنه للشخص الذي أقلق مضجع رئيسه، لكن الرئيس يُصرُّ على أن هذا الرجل يكذب، وقد وضع كامل ثقته به كي ينهي هذا الأمر، لهذا فقد كان مضطرًّا إلى إخفاء حيرته، قال بحدة مفتعلة:

– سأمنحك مهلة أخيرة.

نظر إليه الأسير بامتعاض. وتابع الرجل الضخم بغلظة:

– دقيقة واحدة لا أكثر، إما أن تبدأ بعدها في الكلام أو في الصراخ ألمًا حتى الموت وأنت تراقب أعضاء جسدك وهي تفارقك واحدًا تلو الآخر، الأمر عائد لك.

ثم رفع معصمه الأيسر وأخذ ينظر إلى ساعته، راقب العقرب الصغير وهو يقطع الثواني ذهابًا بلا عودة. مضت الثواني في مسيرتها المعتادة. بعد الثانية الخمسين بدأ يعد بصوت مسموع:

– واحد وخمسون، اثنان وخمسون، ثلاث وخمسون...

لكن الرجل النحيل بقي هادئًا ولم يرمش له جفن، في حين ازداد ارتباك الضخم الذي استمر في العد:

– ست وخمسون، سبع وخمسون...

تردد لجزء من الثانية، ثم تابع العد:

– تسع وخمسون...

رفع رأسه وقال:

- انتهى الوقت، الآن، ما قرارك؟

أخذ الرجل نفسًا عميقًا، ثم قال:

- سأفعل الصواب.

تهللت أسارير الضخم، لكن الرجل تابع:

- سوف أصرخ بأقصى ما أوتيت من قوة، فقط أَنْهِ الأمر بسرعة.

على الرغم من أنه قضى من عمره سنوات طويلة في هذا العمل لكنه لم يكن شخصًا سادِيًّا أو لديه نزعة إلى تعذيب الآخرين، كان مجرد موظف يقوم بما يمليه عليه رئيسه، كان يأمل بأن يبوح الرجل بما لديه أخيرًا، وتنتهي المسألة عند هذا الحد، لكنه كان مخطئًا. زفر الضخم بضيق، لقد كان يشرف على تعذيب رجل يائس وليست لديه مشكلة في أن يموت، رجل لم يعد الخوف على الحياة والأمل بالنجاة حافزًا له. قال موجهًا الأمر إلى أحد الرجلين اللذين بجانبه:

- أعطني الكماشة.

كانت حركة تمثيلية قاموا بها مرات عديدة من قبل، فتح الرجل صندوق العدة وتظاهر بأنه يبحث بين محتوياتها عن الأداة المناسبة لإحداث القدر اللازم من الأذى، اختار كماشة معدنية ذات أسنان حادة، وناولها للضخم الذي حرص على أن تكون مرئية للرجل المقيد تحت الإنارة الشحيحة، لكن الأخير لم يُبدِ أيَّ رد فعل يدل على الخوف أو أيَّ شعور آخر مرادف له. اقترب الضخم من الرجل المقيد ثم سأل:

- أيُّ إصبع ترغب في أن تودعها أولًا؟

لكن الرجل فاجأه قائلًا:

- ما رأيك في أن تحصل على الذراع بأكملها؟

ثم أخذ يضحك بصوت عالٍ وهو يقول:

- ألا تعلم أنه كان يجدر بي أن أكون ميتًا من وقت طويل، ألم يخبرك رئيسك بذلك؟

تأمله لوهلة حاول خلالها أن يرسم على وجهه معالم شخص قاسٍ ولا مبالٍ، ثم أمسك بإصبع البنصر اليسرى وثبتها بين فكَّي الكماشة، بدا الرجل الجالس على المقعد مستسلمًا، ولم يُبدِ أيَّ مقاومة تُذكر، الأمر الذي أثار قشعريرة خفية لدى الضخم، لكنه لم يسمح للتردد أن يتغلغل في أفكاره أكثر، وضغط على طرفي الكماشة بحركة واحدة، قوية، وسريعة، وقاطعة. لم يستغرق الأمر سوى ثانية وصرخة مكتومة خرجت دون إرادة من صاحبها رغم كل محاولاته لإخفائها، تهاوت الإصبع الصغيرة على الأرض تاركة وراءها الكثير من قطرات الدماء التي تتهافت للخروج قبل أن يقطع الضخم

عليها الطريق بقطعة قماش صغيرة. انتظر الضخم بصبر، راقب الوجه الذي كان يخوض نزالًا مع التشنج وهو يستعيد شكله بالتدريج بعد أن أصبح صاحبه أكثر تأقلمًا مع الألم، سأله مجددًا:

- ها، هل ستتكلم الآن؟

كان الرجل يرمش بشدة، بدا على أعتاب نوبة قلبية، قال بصوت محشرج:

- لديَّ شيء واحد لأخبرك به.

أحنى الضخم جسده كي يقترب من محدثه أكثر، سأل بترقب:

- ما هو؟

قال الرجل:

- لديَّ بنصر أخرى في يدي اليمنى، بإمكانك أن تحصل عليها هي أيضًا.

ثم انفجر في الضحك فجأة، تاركًا الضخم في حالة ذهول استمرت ثواني، في حين ردد الرجل بصوت بدا ضعيفًا وغير مفهوم بسبب إمعانه بالضحك:

- عشت أعوامًا طويلة وأنا خائف، أنام خائفًا وأستيقظ خائفًا وأجوب في الطرقات خائفًا، السنوات استنفدت خوفي، والآن لم يبقَ لديَّ المزيد لأقدمه لك.

عند هذه اللحظة قرر الرجل الضخم ألا فائدة ترجى من هذ الشخص؛ لذا تركه وشأنه وسار عائدًا إلى حيث يقف الرجلان الآخران، أرجع الكماشة إلى الصندوق في حين كان عقله هائمًا بين أفكاره. سأله أحد الرجلين وهو يُظهِر قبضتي يديه ظهورًا استعراضيًّا:

- هل أعاود ضربه مجددًا؟

- لا داعي لذلك، لم يعد في وجهه مكان سليم لتلكمه، وجهه مشوه سلفًا من دون الحاجة إلى الضرب.

- ماذا نفعل إذن؟

- دعني أفكر قليلًا.

لكن التفكير لم يصل به إلا إلى المزيد من الارتباك، أخرج هاتفه وحاول الاتصال برئيسه، ظل ينتظر إلى أن سمع الصوت الغاضب على الطرف الآخر.

- لا يا سيدي، هو يرفض أن يتكلم.

- لا، أنا ما زلت رَجُلك المخلص طبعًا.

– يا سيدي.. اسمح لي، لا أعلم لِمَ أنت قلق منه إلى هذا الحد، هذا الرجل لن يسبب لنا أيَّ ضرر، هو مجرد شخص مجنون.

– آه.. حسنًا، سأترك ما بيدي وأحضر حالًا، لن أتأخر.

أغلق الهاتف وهو يزفر في ضيق، ثم قال:

– الرئيس منزعج للغاية، طلب مني أن أحضر لرؤيته على الفور.

قال أحد مساعديه وهو يشير إلى الأسير:

– وماذا عنه، هل أعاود ضربه مجددًا؟

– هذا لن يجدي نفعًا، هذا الرجل ليس لديه ما يخافه، لن نحصل على أيِّ شيء منه.

– ماذا نفعل إذن؟

عاد الرجل الضخم ليطرق باب أفكاره المترددة، ثم قال:

– لا أعلم، ولا أدري بصراحة لِمَ الرئيس مهتم به إلى هذا الحد، سنفتش مسكنه مجددًا، ربما نكون قد أغفلنا شيئًا في المرة الأولى.

– لن تعثروا على أيِّ شيء.

بدأ الرجل يهتف بهذه العبارة وهو يضحك، استدار الضخم وألقى عليه نظرة سريعة، ثم عاد لينظر إلى رَجُليه وهو يقول مؤكدًا فكرته الأولى:

– هل رأيتم؟ هذا الرجل مجنون تمامًا، سأذهب الآن لرؤية الرئيس، أنتما ابقيا هنا وانتظرا مكالمة مني.

قالا بصوت واحد تقريبًا:

– مفهوم.

– جيد، سأغادر الآن.

سمع الرجلَ المقيد من خلفه يقول وهو لا يزال يضحك:

– أين الشيطان؟ أحضروا لي الشيطان.

استدار الضخم وقال متسائلًا:

– الشيطان؟

– الشيطان الأسود ذو العينين الحمراوين.

ثم عاد ليضحك مجددًا حتى كاد أن يختنق بدمائه التي تراكمت في حلقه قبل أن تضطره إلى الدخول في نوبة عطاس قاسية، قال أحد الرجلين وهو ينظر باتجاه الضخم الذي أغرقه الارتباك:

- عن أيِّ شيطان يتحدث هذا المخبول؟

قال الضخم بنبرة عصبية:

- وما أدراني ما الذي يدور برأسه اللعين؟

ثم مسح قطرة عرق نبتت على جبينه فجأة، في حين هتف الرجل المقيد بصوت عالٍ:

- أحضروا لي الشيطان، أخبروه أنني بانتظاره، لن أذهب إلى أيِّ مكان، أم أن الشياطين تهرم وتصبح عاجزة هي أيضًا؟

ثم عاد إلى الضحك بهستيرية بثَّت الرعب في قلب الرجل الضخم وصاحب الباع الطويل في إيذاء الآخرين، الذي اكتفى بابتلاع لعابه قبل أن يغادر مسرعًا من دون أن ينظر إلى الخلف، في حين كرر الرجل من ورائه قائلًا:

- هل الشياطين تهرم حقًّا؟

3

ظلّا يصرخان حتى حلَّ بهما التعب، كانت الفتاة أول من استسلم. قالت:

- أخبرتك أن أحدًا لن يأتي لنجدتنا، وأنه لا يوجد باب أصلًا.

عند هذا الحد.. وبتحريض من اليأس والإرهاق وجفاف الحلق، فإن الرجل الأكبر سنًّا فقد أعصابه أمام سذاجة الفتاة التي كانت لا تزال تتنعم بعشرينيات عمرها شكلًا ومضمونًا؛ لذا خاطبها بنبرة حادة:

- وكيف تعتقدين أننا دخلنا إلى هنا إذن؟

لكن الفتاة لم تكن تشعر بالاستفزاز ذاته الذي اجتاحه على حين غرة، قالت بنبرة صوت هادئة وبوتيرة متزنة:

- أتمنى لو لديَّ تفسير لذلك، لكنت أخبرتك بالتأكيد.

رمقها بنظرة مستنكرة، هدوؤها الغريب كان من شأنه أن يزيد من استفزازه، لكنه فكر في أنها ربما بدأت تفقد عقلها، ربما كانت وحيدة لوقت أطول مما يجب؛ لذا اكتفى بأن زفر بعمق ليخرج ما يعتمل في جوفه من ضيق قبل أن يسأل:

- منذ متى وأنتِ موجودة في هذا المكان؟

أجابت بسرعة:

- لقد أفقت قبلك بدقائق.

- ولِمَ تبدين هادئة إلى هذا الحد؟

- لستُ هادئة، أنا خائفة جدًّا.

- لا يبدو لي بأنك خائفة.

ردَّت مؤكدة:

- بالعكس، أنا خائفة إلى حدِّ التجمد.

نبرة صوتها على هدوء وتيرتها مريبة، ولكنها بدت صادقة جدًّا، الخوف واليأس يمكن أن يُحدثا أثرًا قاتلًا على الأعصاب، فكر بأنها واقعة تحت تأثير نوع ما من أنواع المخدرات، ولكنه شيء لا يمكن أن يلومها عليه بأيِّ حال، وسرعان ما تحول غيظه منها إلى شفقة حيالها، قال بعزم وتصميم لم يكن متأكدًا فيما إذا كان يمتلكهما حقًّا:

- لا تخافي، سوف نخرج من هنا قريبًا، أعدكِ بذلك.

لم يبدُ عليها الكثير من الاقتناع، لكنها نجحت بإخفاء ما يجول بخاطرها، الذي توصلت إليه باستخدام حسبة بسيطة ومنطقية، كلاهما مقيد بالسلاسل بداخل غرفة بلا أبواب أو نوافذ؛ لذا فإن الخروج منها يبدو حلمًا بعيد المنال، كلاهما لا حول له ولا قوة وليست لديه أيُّ فكرة عن سبب وجوده هنا أو هوية المتسبب بذلك. الدقائق التالية مضت ساكنة وبطيئة، أمضى فيها الرجل جزءًا من وقته وهو يعاود فحص السلسلة باحثًا عن طريقة يمكنه من خلالها أن يُخلِّص قدمه، فكر بأن يكسر مفصل كاحله، لكنها خطة غير مضمونة العواقب، الحلْقة كانت ضيقة، وربما ينتهي بالقيد وبألم لا يُحتمل في آن معًا.. بعد أن كان يكتفي بالقيد من دون أيِّ ألم.. إلى حد الآن على الأقل. في النهاية أعلن استسلامه، في حين بقيت الفتاة تراقبه بصمت. أراح الرجل ظهره إلى الجدار، ثم نظر باتجاه الفتاة وسألها:

– هل يمكن أن تفكري بأيِّ سبب يفسر وجودكِ هنا؟

– لست متأكدة، أنا حقًّا لا أعرف.

– ركزي أفكارك وحاولي أن تتذكري أيَّ شيء، أفكارنا هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقدم لنا المساعدة.

– ربما أتذكر بعض الأشياء.

تهللت أساريره، هذه كانت أول بادرة إيجابية يحصل عليها منذ أن استيقظ، سألها بلهفة:

– هل يمكنكِ أن تصفي لي أشكالهم.

بدا عليها الارتباك، سألت:

– مَن تقصد؟

– الأشخاص الذين فعلوا بنا ذلك.

لكن الفتاة هزَّت رأسها نافية ثم قالت:

– لا أذكر أيَّ أشخاص.

تنبه إلى أن حماسه كان زائدًا على الحد؛ لذا فقد استعاد نبرة صوته الطبيعية وهو يقول:

– لا بأس، هل تذكرين آخر مكان كنتِ موجودة فيه قبل أن تغيبي عن الوعي؟

هزَّت رأسها نفيًا من جديد. قال مستحثًّا:

– حاولي مجددًا!

قالت بنبرة صادقة:

- أنا أحاول جاهدة منذ أن فتحت عيني في هذا المكان.

عاوده التساؤل عن سر هذا الهدوء الغريب الذي يختفي خوفها خلفه، هو الآخر كان يشعر بالشيء نفسه، لكن بإمكانه أن يحيل حالته هذه إلى خبرات سابقة أو تجارب مر بها من قبل، فهو رجل متمرس وكبير في السن، ليس بإمكانه أن يتذكر عمره على وجه التحديد، لكنه تجاوز مرحلة الشباب بلا ريب، في حين أنها لا تعدو كونها فتاة صغيرة ويانعة، أما ما كان يشغله أكثر.. فهو عدم قدرته على تحديد ما إذا كان عليه أن يعجب ببرود أعصابها الظاهري أم يرتاب في الأمر. سألها فجأة:

- كم تبلغين من العمر؟ عشرين؟

قالت بسرعة:

- لا، أنا أكبر من ذلك، أظن بأني تخطيت العشرين منذ وقت طويل.

- حقًّا؟

- أجل، لكنني أمتلك وجهًا طفوليًّا وجسدًا نحيلًا، لهذا أبدو صغيرة في السن.

- أنت تتذكرين؟

- لا أتذكر على وجه اليقين، لكنني أشعر بذلك، كأنه يتحتم عليَّ معرفة إجابة هذا السؤال.

هز رأسه موافقًا، ثم قال:

- أظن أنني أسوأ حالًا منكِ، فأنا لا أذكر كم أبلغ من العمر.

تأملَتْه بإمعان، الشعر الناعم القصير الذي اختلط بياضه بسواده، والبشرة البيضاء ذات التجاعيد الخفيفة، والعينان السوداوان الغائرتان قليلًا، والفك القوي، والجسد الممشوق، والأكتاف العريضة. قالت بنبرة عفوية:

- يُهيَّأ لي أنك قد تجاوزت الخمسين.

ابتسم للمرة الأولى منذ استيقاظه، ثم قال مُعقِّبًا:

- هذا ما يغلب على ظني أنا أيضًا، يحتمل أنني تجاوزت الستين حتى.

- لكنك حظيت بحياة مترفة، آثار النعمة بادية عليك.

هزَّ كتفيه وهو يقول:

- ربما.

- كما أنك تمتلك جسدًا رياضيًّا مثل شاب في العشرين.

فاجأته ملاحظتها الأخيرة، ولكنها أشعرته بشيء من الزهو في الوقت ذاته، شد على ذراعه اليمنى وتأمل عضلة البايسيبس التي كانت تختفي تحت القميص ذي الأكمام الطويلة الذي كان يرتديه، قال:

- يُحتمل أنكِ محقة.

سرح بخياله قليلًا، أدرك للمرة الأولى أنه يتمتع بجسد قوي فعلًا، لا بد من أنه كان شخصًا يحسن الاعتناء بنفسه جيدًا، تنامى شعوره بأنه رجل قوي يتمتع بمكانة مرموقة، ولديه نفوذ لا يُستهان به، ثم فكر في أن أيًّا كان مَن جاء به إلى هنا فهو يعرف هذه المعلومة جيدًا، وسيحاول أن يستغل ذلك ليجني بعض الفوائد بطريق ملتوية، لهذا السبب فإنه سيُظهِر وجهه عاجلًا أم آجلًا. لكن الفتاة قاطعت حبل أفكاره قائلة:

- توجد أشياء غريبة تحدث معي ولا أملك تفسيرًا لها.

تنبه إلى سؤالها متأخرًا؛ لذا لم يتمكن من استيعابه كلية، سأل:

- هل يتعلق ذلك بالطريقة التي وصلتِ بها إلى هذا المكان؟

- لا، إنما أقصد الاضطراب الذي أشعر به، وفقدان الذاكرة الغريب، والملامح الضبابية للأشياء التي أراها في مخيلتي، وانعدام القدرة على الفهم، وهنالك التخيلات الأخرى التي تتراءى لي ولا أفهم ماهيتها.

أومأ مؤمنًا على كلامها ثم قال:

- لا تقلقي، سوف تستعيدين ذاكرتك قريبًا، من الواضح أنها حالة مؤقتة وستزول سريعًا.

- أجل.. أفهم ذلك، وليس هذا هو ما أخشاه.

ترددت قليلًا، ثم تابعت:

- هنالك أمور أخرى أشعر بها.

الجدية التي طرأت على ملامحها دفعت الرجل لأن يُبدي انتباهًا أكثر، سأل:

- ما هذه الأمور تحديدًا؟ هل يمكن أن توضحي لي أكثر؟

تنهدت الفتاة، أخذت نفسًا عميقًا، كانت تشعر بالارتياح لأنها ستتمكن أخيرًا من أن تفصح عما تمر به، قالت:

- حسنًا، إنها أشياء غير مفهومة فعلًا، أحيانًا أرى أطيافًا سوداء تظهر وتختفي فجأة، أو تمر من أمامي سريعًا في أرجاء الغرفة، وأحيانًا أخرى أسمع أصواتًا مخيفة

تهمس في أذني بعبارات غير مفهومة.

لم يعلق الرجل على كلامها، كان ينتظر أن يسمع شيئًا مُهمًّا؛ لذا بدا خائب الظن، عاد ليسند ظهره إلى الجدار وفي رأسه تدور رحى فكرة أخرى، فهو الآن لم يعد يثق كثيرًا بما كان يراه أمامه، إما إن الفتاة كانت تتلاعب به أو أنها أصيبت بلوثة في عقلها، في النهاية وجد تفسيرًا ملائمًا للغاية. قال:

– لا داعي لأن تقلقي بهذا الشأن، لا توجد أيُّ أشباح في هذه الغرفة ولا في أيِّ مكان آخر في العالم.

– لكنني رأيتها.

هزَّ رأسه نافيًا بثقة، ثم قال:

– هذه كلها مجرد هلاوس يا صغيرتي.

– هلاوس؟

بان الاستغراب على ملامح الفتاة، كان ظاهرًا لدرجة أن الرجل كان بمقدوره رؤيته من مكانه في الجانب المقابل من الغرفة بالرغم من نورها الخافت، وهو أمر غريب لم يجد له تفسيرًا أيضًا؛ القدرة على الرؤية جيدًا في مكان شبه معتم. قال موضحًا:

– هذا هو التفسير الوحيد الأقرب إلى المنطق، لقد وقعنا تحت تأثير مادة مخدرة أو عقار معين تسبب لكلينا بفقدان مؤقت للذاكرة، يبدو بأنه تسبب لكِ بآثار جانبية أشد تأثيرًا أدت إلى الهلوسة.

آه.. تنهدت الفتاة، وعدلت من وضعية جلوسها للمرة الأولى منذ أن رآها الرجل، استغنت قليلًا عن دفاعاتها ولم تعد متكورة على نفسها، شعر بأنها قد تذكرت شيئًا ما، سألها:

– هل شربتِ أو أكلتِ شيئًا قبل أن يُغمى عليكِ مباشرة؟

بقيت صامتة لوهلة، ثم قالت:

– لا أتذكر، لكنني أستبعد أن أكون قد تناولت أيَّ شيء.

سألها بتشكيك:

– وكيف يمكن أن تكوني متأكدة؟

– أنا أشعر بذلك فقط، لا أعتقد بأن شخصًا دسَّ لي مخدرًا في طعامي أو شرابي، إضافة إلى أن هذا سيكون شيئًا بعيد المنال.

– لِمَ تعتقدين ذلك؟

وجهت إليه نظرة مباشرة، ثم قالت:

- لأنني لا أثق بالغرباء.

- لا تثقين بالغرباء؟

قالت وهي تشدد على الكلمات:

- لا أثق بالغرباء على الإطلاق، ولست بحاجة إلى ذاكرة سليمة لأعرف ذلك.

كانت الفتاة تفكر بالطريقة نفسها التي يفكر بها، وكان هذا أمرًا مقبولًا بالنسبة إليه، فكلاهما يمر بظروف مشابهة وبمأزق لا يُحسدان عليه؛ لذا آثر أن يتكلم بصراحة.

- هل تَشُكِّين بي؟

تظاهرت بأنها تفاجأت، لكنها كانت محاولة مكشوفة. قال ليوضح ما فكر بأنه كان واضحًا سلفًا:

- أنا محتجَز مثلكِ كما ترين.

تنبهت الفتاة إلى أنها كشفت مما يدور بفكرها أكثر مما سعت إليه، وهي لم تكن معتادة على أن تفعل ذلك، فقد كانت حذرة بطبعها، من الصعب جدًّا أن تثق بأيِّ شخص، ووجود رجل مقيد إلى جانبها في غرفة واحدة لم يكن كافيًا؛ لذا آثرت ألا تخوض في المسألة أكثر، وقالت في محاولة لتغيير الموضوع:

- ماذا عنك أنت؟

نظر إليها مستفهمًا، تابعت قائلة:

- هل تناولت أيَّ شيء قبل أن يُغمى عليك؟

لم يكن يتذكر هو أيضًا، كانت حاله أسوأ منها بكثير.

- لا بد من أنني قد تعرضت لخيانة من شخص أثق به، هذا هو التفسير الوحيد، فأنا أستبعد أن أكون رجلًا قليل الانتباه ويمكن الإيقاع به بسهولة.

- تبدو مغترًّا بنفسك الآن.

كانت محقة بعض الشيء، شعوره بأنه شخص مهم كان يتعاظم مع كل لحظة، رجل مثله سيكون لديه الكثير من الأعداء، هذا أمر لا جدال فيه، يمكن أن يكون أيًّا منهم قد خطط للإيقاع به، لكنه بالمقابل سيكون حذرًا بما يكفي كي لا يسمح لأيِّ شخص بأن يدُسَّ له مخدرًا في شرابه. فقال:

- حسنًا، الاحتمال الآخر هو أننا تعرضنا لغازات سامة.

- غازات؟

- صحيح، ما دمتِ متأكدة من عدم تناولك أيَّ شيء مسموم قبل الإغماء، وهو شيء أصبحتُ أنا بدوري متأكدًا منه، وما دمنا قد اختُطفنا في وقت واحد، فإن هنالك احتمالية بأن كلينا كان موجودًا في المكان نفسه في تلك الأثناء...

توقف فجأة بعد هذه العبارة، ثم عاد ليتأمل الفتاة بتمعن، بدا أنها كانت تفكر بالأمر نفسه في هذه اللحظة، كانت أول من قطع حاجز الصمت الذي حل بينهما كضيف ثقيل الظل، إذ قالت بثقة:

- لا، أنا لست ابنتك، هذا أمر متأكدة منه جدًّا.

هو أيضًا لم يكن يحمل حيالها أيَّ مشاعر أبوية من أيِّ نوع؛ لذا أخبره حدسه بشيء مماثل، هذه الفتاة غريبة عنه كليةً، لكن لأيِّ درجة؟ فقال:

- لست والدك، أنا أيضًا متأكد من ذلك، حتى إنني كنت لأشك فيما إذا كنا نعرف بعضنا لولا وجودنا في هذه الغرفة السوداء معًا، لا بد من وجود صلة تجمع بيننا، سنعرف ذلك مؤكدًا في حال تمكنا من استعادة ذاكرتينا.

أومأت موافقة. لم يكن لديهما شيء يفعلانه سوى الانتظار.

4

– حسنًا، كل ما يمكنني أن أفكر به هو أنني كنت أجلس في مكان واحد مع هذه الفتاة، ونشر أشخاص مجهولون غازًا مخدرًا في أرجاء المكان، احتمال وارد جدًّا، أو أن كل واحد منا قد تعرض إلى الغاز في مكان منفصل، ولكننا وُضِعنا معًا في هذه الغرفة لغرض ما.

– وأيَّ الاحتمالين ترجح؟

أدرك للتو أنه كان يفكر بصوت عالٍ من دون أن ينتبه، قال مجيبًا:

– لا أعرف، الاحتمال الأول يبدو لي منطقيًّا أكثر، لكن ليست لديَّ معلومات كافية لأستند إليها.

بدت له الإجابة مثالية، «ليست لديَّ معلومات كافية بعد»، لكن ماذا لو أن هذه المعلومات لم تتوفر في أيِّ وقت قريب، هل سينتهي أجله في هذه الغرفة دون أن يعرف السبب من وراء ذلك؟ سرعان ما طرد الأفكار السوداوية التي استمدت شكلها من لون جدران الغرفة. عليه أن يبقى هادئًا قدر الإمكان، إذا كانت الفتاة قادرة على الاسترخاء فإن بإمكانه أن يفعل المثل، حتى لو كان هذا الهدوء الظاهري هو مجرد أثر جانبي لمخدر غامض.

خطرت بباله احتمالية تعرضهما لغاز الـ BZ، أو ربما لغاز الفاليوم، نوع شبيه بذاك الذي استخدمه الروس في إحدى عمليات تحرير الرهائن الشهيرة، وتسبب في شل حركة الخاطفين، يمكن أن يفسر الهذيان، ولكنه لا يعلم فيما إذا كان يمكن أن يتسبب في فقدانٍ للذاكرة، توجد عقاقير يمكن أن تتسبب في فقدان للذاكرة، مثل: المورفين أو الروهيبنول بنسبة أكبر، لكنها ليست غازات وإنما سوائل ولا تفسر الهذيان.

يُحتمل أنهما تعرضا إلى غاز كيميائي لم يُسمع عنه من قبل، ربما كان عقارًا جديدًا، ماذا لو كان الأمر مرتبطًا بهجوم إرهابي؟ لو كان ذلك حقيقيًّا فإن أبعاده ستكون خطِرة للغاية. ثم لماذا يشعر بأن هذه الأمور مألوفة بالنسبة إليه؟ هل للأمر علاقة بعمله الذي لا يعرف عنه أيَّ شيء بعد؟ لقد كان يشغل منصبًا مُهمًّا، هو متأكد من ذلك مثلما أصبح متأكدًا من أن منصبه هذا هو السبب في وجوده في هذا المكان، لكن وجود هذه الفتاة يظل لغزًا بحد ذاته، ما دورها في هذه المعضلة؟ لكنه حين نظر إليها مجددًا أبعد الفكرة من رأسه نهائيًّا، هذه الفتاة ليست ابنته ولا تعنيه بأيِّ شكل من الأشكال. مضت مدة صمت أخرى، وحينما تكلم الرجل بعدها، بدا متفائلًا للغاية بالمقارنة بما كانا يمران فيه.

– اسمعيني، لا أظن بأننا سنبقى هنا طويلًا.

رفعت الفتاة رأسها عن الأرض ونظرت إليه بانتباه، تابع كلامه:

- الأشخاص المسؤولون عن احتجازنا هنا، هم غالبًا يهدفون للحصول على فدية.

- فدية؟

بدت نبرة صوتها أقل تفاؤلًا منه بكثير.

- بالتأكيد، هذا ما يبحث عنه الخاطفون في العادة، سواء كانوا مجرمين أم حتى إرهابيين، المال هو الدافع الوحيد الذي يسعى وراءه الجميع.

- ربما تكون محقًّا فيما تقول، لكن هذه ليست المشكلة، أنا لا أظن أنني أمتلك أيَّ نقود.

- تقصدين أن أهلك لن يكون بمقدورهم دفع فدية لإخراجك من هنا؟

سكتت قليلًا، كانت تحاول أن تعثر على تقدير لوضعها المالي، تحاول أن تتذكر، قالت:

- حسنًا، لقد كنت فقيرة جدًّا في الواقع.

ثم نظرت إليه وقالت:

- لو كان الخاطفون يسعون إلى الحصول على فدية مثلما قلتَ، فإنهم استهدفوا الفتاة الخاطئة بكل تأكيد.

فهم الرجل ما كانت ترمي إليه، كانت تحاول مجددًا أن تغلق بابًا فتحه للتو، بدأ يشعر بالحنق، قال بنبرة مستاءة:

- كيف يمكن أن تكوني متأكدة بأن هذا ليس هو السبب، ربما يجدر بك أن تفكري...

لكنها قاطعته قبل أن يكمل عبارته، بدا لها بأن ما بدر إلى ذهنها للتو لا يحتمل التأجيل إلى أن يحين دورها في الكلام.

- أنا يتيمة.

- ماذا قلتِ؟

نسي الرجل استياءه سريعًا، عدل من وضعية جلوسه وصار أكثر انتباهًا، سألها:

- أنتِ تتذكرين؟

تابعت كلامها ببطء وبوتيرة واحدة كأنها تقرأ من كتاب مفتوح أمامها:

– أنا يتيمة الأب والأم منذ وقت طويل جدًّا، منذ أن كنت طفلة صغيرة، كلاهما مات في حادثة، وقد قضيت طفولتي في بيت جدتي لأبي، ثم انتقلت بعد وفاتها إلى دار للأيتام.

توقفت عن الكلام، لكن البريق في عينيها بقي ظاهرًا، ألحَّ عليها الرجل أن تتابع. تنهدت بعمق، ثم قالت:

– أتذكَّر جزءًا من طفولتي، لا أرى ملامح واضحة بعد، لكنني أتذكر بما يكفي لأعرف بأنني كنت يتيمة وفقيرة، صحيح، أنا أتذكر أمرًا آخر.

– ما هو؟

– اسمي.. اسمي لينا.. لينا نادر.

المشهد

امرأة عجوز في السبعينيات من عمرها تجلس فوق أريكة قديمة بهت لونها، ترتدي دشداشة كحلية داكنة تتخللها خيوط سوداء، وتضع فوق رأسها طرحة بيضاء، على بعد أمتار قليلة منها طاولة سفرة عليها تلفزيون من طراز قديم يبث فيلما بالأبيض والأسود، وبالقرب منها تجلس طفلة صغيرة في الثامنة بوجه أبيض مدوَّر وضفيرتين سوداوين تنسابان على جانبي وجهها، وتحتضن دمية قماشية بين يديها.

قهقهت العجوز وهي تراقب بطل الفيلم الذي كان يقوم بإحدى حركاته الشهيرة والمرحة، وبالرغم من انتهاء المشهد فإن العجوز ظلت تضحك ضحكًا زائدًا على الحد، وحينما انتهت من الضحك انتابها شعور بالذنب، قالت في محاولة لتبرير سبب هذا الضحك للفتاة الصغيرة:

– هذا الممثل يذكرني بجدك رحمه الله، يشبهه في الهيئة وفي خفة الدم أيضًا، لهذا السبب أشعر بالرغبة في الضحك في كل مرة أراه فيها على الشاشة، والدك المرحوم أيضًا فيه شبه منه، ليس في الشكل ربما، والدك كان أكثر وسامة من جدك ومن الممثل نفسه، لكن خفة الدم هي نفسها.

بقيت عينا الفتاة معلقتين على الشاشة، تحاول أن تبحث عن أيِّ معالم لوالدها في حركات ذلك الممثل، لكنها تفشل. تابعت العجوز كلامها بعد انتهاء المشهد وقد تغيرت معالمها من المرح المتكلف إلى الحزن:

– الله يرحمهما، كلاهما أخذ قطعة من قلبي برحيله.

ثم التفتت إلى الفتاة وقالت:

– والدك يا لينا كان الوحيد من بين جميع مَن أنجبهم بطني، الذي كان يواظب على زيارتي، هل تصدقين ذلك؟ عندي بنتان وثلاثة أولاد، لكنني في حقيقة الأمر لم أنجب سوى واحد فقط، كأن البقية كانوا أولاد حرام، آه، حسنًا، ليست البنتان من ضمنهم،

البنتان تزوجتا ورحلتا إلى محافظات بعيدة، تعرفين كيف هو الحال، أمر البنت بيد رجلها، وهن يزرنني على مدد متباعدة كلما سمحت الظروف، أنتِ تعرفين عمَّتيك وأولادهما جيدًا، وأنا أعرفهم وأحفظ أسماءهم، وتتاح لي الفرصة لأستمتع بضجيجهم مرة كل شهر، لكن الأمر يختلف بالنسبة إلى الأولاد، كلهم رحلوا عن المنطقة وانغمسوا في حيواتهم الجديدة مع زوجات متعجرفات لا يطِقن امرأة عجوزًا ووحيدة مثلي لم ترتكب أيَّ إساءة بحقهم، بل على العكس، منحَتْهم أعز ما تملك، لكن ليس والدتك يا لينا، لا، والدتك لم تكن متعجرفة، كانت بمكانة ابنة أخرى لي، امرأة طيبة وصالحة، الطيبون للطيبات فعلًا، أبوك -الله يرحمه- كان يستحق امرأة مثل والدتك، وكلاهما استحق أن يُرزق بابنة مثلك.

اشتدت يد الفتاة حول لعبتها، لكن معالم وجهها بقيت جامدة. رنين جرس الباب ملأ أرجاء الشقة الصغيرة، تبدت معالم المفاجأة على وجه العجوز، خاطبت الصغيرة قائلة:

- ترى مَن الذي تذكرنا في هذه الساعة؟

ثم قامت من مقعدها وسارت نحو الباب القريب بخطوات متثاقلة، حياها الرجل الذي كان يقف على عتبة الباب وهو يحمل بيده العديد من الأكياس، انتظر قليلًا حتى انتهت العجوز من عتابها الذي خرج من فمها على استحياء قبل أن يدلفا إلى الصالة حيث كانت الفتاة لا تزال جالسة في مكانها وعيناها الزائغتان ما زالتا معلقتين على الشاشة بالرغم من اختفاء الممثل الذي يشبه جدها شكلًا ووالدها روحًا عن الأنظار ليحل بدلًا منه ممثلون آخرون بمشاهد وأدوار أخرى. قالت الجدة:

- هذا الأستاذ معاذ يا لينا، هل تذكرتِه؟ لقد كان صديقًا للمرحوم والدك.

قال الرجل بصوت رقيق وعلى وجهه ابتسامة عريضة:

- كيف حالكِ يا لينا؟

أجابت الفتاة:

- أنا بخير، الحمد لله.

- هل يمكن أن نتحدث قليلًا؟

ظهر عليها بعض التردد، قال بأسلوب مطمئن:

- أنا لست غريبًا، أنا كنت صديقًا لوالدك منذ أن كنا في الجامعة، هو اختار أن يدرس الحقوق ليصبح محاميًّا، وأنا اخترت أن أدرس الصحافة.

قالت بتشكك:

- لكنني لم يسبق لي أن رأيتك من قبل.

ابتسم، وقال:

- هذا لأنني كنت أعمل طوال الوقت ولم تسنح الفرصة لأزورك في البيت.

أخرج علبة السجائر من جيب قميصه ثم قال متوجهًا بالحديث إلى العجوز:

- هل تسمحين لي بالتدخين؟

- براحتك يا ولدي.

أخرج لفافة تبغ وضعها في فمه، ثم أخرج قداحته وأشعلها وهو يراقب الطفلة التي تجمدت في مقعدها مثل مكعب ثلج، وقد اكتسى وجهها بمعالم فزع عارم.

- ما بكِ يا صغيرتي؟ هل أنتِ بخير؟

لم تجب الفتاة، بدا أن لسانها قد انعقد في حين ازداد شحوب وجهها وهي تحدق إلى القداحة.

- لينا، ما الذي أصابك؟

نظر الرجل إلى المرأة العجوز وهو يقول:

- ربما لا تزال خائفة.

قالت العجوز باستياء:

- لا، أرجو ألا تكون قد فعلتها من جديد، لا أعلم ما الذي دهاها؟ لقد أصبحت تبول على نفسها مؤخرًا، لا حول ولا قوة إلا بالله.

شعر الرجل بشيء من الحرج، أشاح بوجهه عن الفتاة وهو يقول:

- اعذريها يا خالة، لقد فقدت والديها للتو بأسوأ طريقة ممكنة.

تنهدت العجوز، ثم أمسكت الفتاة من يدها وهي تقول:

- عن إذنكَ يا ولدي، البيت بيتك.

سارتا إلى الداخل في حين بقي الرجل يقف وحيدًا في وسط الصالة، ألقى نظرة حوله، ثم نفث ما تبقى من سيجارته سريعًا وغادر بهدوء.

5

كان من الصعب عليهما أن يخوضا في محادثة طويلة الأمد، لينا لم تسعفها ذاكرتها في استعادة المزيد من الذكريات، أفكارها كانت تتوالى بطيئة ومقتضبة، في حين أن الرجل لا يزال تائهًا في ظلام أعمى، أحاسيس أولية غامضة، أشياء واقعية لا يمكن إدراكها، التفكير يكون عملية مرهقة حينما لا يكون الكثير في مخازن العقل. سألها مرة أخرى:

– متأكدة من أنكِ لا تملكين خالًا أو عمًّا ثريًّا يمكن أن يدفع الفدية؟

– متأكدة جدًّا.

هذه المرة لم تأخذ أيَّ وقت إضافي كي تجيب، وازداد مقدار الثقة في كلامها، هذا تقدم جيد جدًّا، أو هذا ما اعتقده الرجل، إذا كانت قد بدأت في استعادة أجزاء من ذاكرتها؛ فإنه قريبًا سيكون قادرًا على أن يتذكر هو أيضًا، لكن الخبر السيئ أن المسألة قد أضحت أكثر تعقيدًا، إذا لم يكن المال هو الدافع لاحتجازهما في هذا المكان فما عساه يكون؟ قرر أن يتمسك بالخبر الجيد ويستفيد منه قدر استطاعته، لذا سألها:

– هل تتذكرين أيَّ شيء آخر؟

أطرقت الفتاة قليلًا، ثم قالت:

– أنا أعاني البايروفوبيا.

– ما هذه الفوبيا تحديدًا؟

– رهاب النار، أنا أخاف من الحرائق، حينما أرى نارًا تشتعل أمامي يجف حلقي، وأصاب بالغثيان، ويعتريني شعور عام بالقلق، حتى أقل شعلة يمكن أن تصيبني بالارتعاش.

كانت حدود الارتياب بينهما قد تلاشت تقريبًا في هذه اللحظات، أصبح بإمكانهما إضافة المزيد من الود إلى المحادثة الجارية؛ لذا قال الرجل بنبرة تجمع بين المرح والتعاطف:

– هذا سيئ حقًّا، ماذا لو رغبتُ في إعداد كوب من الشاي؟

– بالعكس، سيكون هذا أمرًا سهلًا للغاية.

– حقًّا؟

فاجأته الفتاة بابتسامة ودود، ثم تابعت قائلة:

– الرهاب يتلاشى في حال كنت أنا من يستخدم النار، أعتقد بأنني أثق بقدرتي في السيطرة على الأمور، لكن الأمر يكون مختلفًا حينما يكون هنالك شخص آخر هو الذي يتحكم بها.

فكر الرجل بكلامها، ثم قال:

– يُحتمل أنك تعرضت لتجربة مروِّعة في صغرك؛ تسببت لك بهذه الفوبيا.

– يُحتمل، لست أدري.

أخذت نفسًا عميقًا، ثم قالت:

– أكبر مخاوفي هو أن أموت محترقة.

أراد أن يعيد على مسامعها مجددًا بألا تخاف، ولكنه فكر بعدم جدوى ذلك الآن، اكتفى بالقول:

– هذا أمر مستبعد، الموت احتراقًا ليس أمرًا شائعًا.

ابتسمت مجددًا، أرادت أن ترد عليه، لكن الكلام تجمد في حلقها. كان بصرها معلقًا على نقطة ما خلف رأس الرجل، ظنت في البداية أنها تتوهم أو تهلوس، وأن هذا الشيء الذي تراه سيختفي سريعًا مثلما اختفت الأطياف التي لمحتها من قبل وهي تطير في أرجاء الغرفة. لاحظ الرجل ارتباكها وسألها:

– ما بكِ؟

لم تجِب، كانت بحاجة إلى أن تتأكد أولًا، في حين أن تلك النقطة اللزجة التي كانت درجة سوادها تفوق طلاء الجدار.. كانت تتسع شيئًا فشيئًا حتى تحولت إلى شكل غريب، عندها أفلتت منها أولى شهقاتها. بدأ القلق يسري في جسد الرجل، سألها بإلحاح أكبر:

– لينا، ما الذي يجري؟

لم تجِبه للمرة الثانية لكن الخوف الذي اكتسى ملامحها كان يحمل إجابة واضحة، ظلت تحدق باتجاه ذلك الكيان الأسود الذي تحول إلى ظل لرجل بعينين حمراوين دائريتين ومن دون أيِّ ملامح أخرى سوى الهول، تسارعت نبضات قلبها وهي تراقب الذراعين اللتين ظهرتا من العدم وأحاطتا بعنق الرجل مثل خُطى ضباب يتماوجان في الفراغ.

عند هذا الحد أدركت بأن كل ما أخبرها به الرجل كان خاطئًا، وبأنها لم تكن تتوهم أو ترى هلاوس. أطلقت صرخة عالية وهي تقول:

– احذر خلفك.

ذُعِر الرجل، استدار إلى الخلف سريعًا وهو ينتظر الأسوأ، لكن في اللحظة التي نظر فيها خلفه، كان الكيان الأسود قد اختفى عن الوجود، لم يجد سوى جدار أسود وأصم. أطلق زفرة مسموعة، واستعاد انضباط أنفاسه، ثم نظر إلى الفتاة بعتاب ظاهر، لكنه لم يغضب ولم ينفعل، إنما قال لها بنبرة متعاطفة:

- لا داعي لأن تخافي، هذه مجرد هلاوس.

لم تجبه فورًا، كانت بدورها تلهث مثل عدَّاء أنهى سباقًا للتو، استغرق منها الأمر لحظات إضافية حتى تستوعب ما حدث. ها قد عاد إلى ذكر الهلاوس مرة أخرى، لكنها هذه المرة لم تكن مقتنعة، قالت بصوت جاف:

- لقد كان حقيقيًّا، لقد حاول أن يقتلك.

- ما الذي تعتقدين أنكِ رأيته؟

- لقد كان كيانًا غريبًا، لا أعلم كيف يمكن لي أن أصفه، كان شبحًا أسود بعينين مخيفتين، كان على وشك أن يخنقك لولا أنني صرخت.

هذه الفتاة مجنونة بلا شك، هكذا فكر الرجل، قال محاولًا إخفاء سخريته:

- حسنًا، شكرًا لكِ على ذلك، لقد أخفتِه فعلًا.

لكنها ردت بإصرار:

- لقد كان حقيقيًّا، أنا متأكدة مما رأيته، لقد...

توقفت عن الكلام هنيهة كأنها تبحث عن كلمة مناسبة لتصف بها الأمر، ثم قالت أخيرًا:

- لقد شعرت بوجوده.

الرجل لم يكن يملك الرغبة بالخوض في هذه المسألة مجددًا، كان ذلك مجرد إضاعة للوقت لا أكثر، في حين أن عليه أن يكون مُركِّزًا أكثر، أن يحاول استعادة ذاكرته أو أيِّ جزء منها، لكن الفتاة كانت مضطربة للغاية، هذه المسألة وحدها كفيلة بتشتيته. قال وهو يكتم غيظه:

- أيًّا كان المخدر الذي تعرضنا له فقد تسبب بنقص الدوبامين في دماغك، لهذا أصبحتْ أفكاركِ مشوشة، تعتقدين بأن ما رأيتِه حقيقي لأن دماغك أراد ذلك، وليس لأنه موجود فعلًا.

هذه المرة انتابها قدر من الاستفزاز الذي انعكس على صوتها في حين قالت:

- اسمعني يا سيدي، أنا أعرف جيدًا ما الذي رأيتُه، أنا لم أصبح مجنونة بعد.

قال بنبرة تخفي الكثير من الغيظ:

- أنا لم أقل قط إنكِ مجنونة، قلت إن الأمر خارجٌ عن إرادتك.

قالت الفتاة:

- لقد سمعت مثل هذا الكلام من قبل، أنا أتذكر الآن.

كان الرجل قد فتح فمه ليقول شيئًا ما لكنه توقف، ثم سأل:

- ما الذي تذكرينه الآن؟

- هذا، أيًّا كان، الترهات النفسية أعني.

- هل كنتِ تتلقين علاجًا نفسيًّا؟

حاولت أن تفسر ماهية المشاهد التي حضرت إلى عقلها للتو، وأن تضع لها ترتيبًا منطقيًّا، قالت:

- ليس علاجًا نفسيًّا، أنا لم يسبق لي الذهاب إلى طبيب نفسي، كان أمرًا مختلفًا، شيء أقرب إلى...

سكتت قليلًا لتبحث عن وصف مناسب، ثم قالت:

- إرشاد، وقتها كنت لا أزال في المدرسة الإعدادية، ضايقتني بعض الفتيات في الصف، وتعرضت لنوبة عصبية شديدة، موت والديَّ أثَّر فيَّ بدرجة كبيرة، أصبت بالفوبيا وصرت سريعة التأثر، وتنتابني الكوابيس والشكوك، لم أعُد الفتاة ذاتها التي كنت قبل وفاتهما.

- هل تذكرتِ شيئًا عن ظروف وفاة والديك؟

هزَّت لينا رأسها موافقة، ثم قالت مؤكدة:

- الآن أتذكر.

- هل تُوفِّيا في حادث سير.

- لا، كان حادثًا من نوع آخر.

فوجئ الرجل بإجابتها، تساءل في قرارة نفسه عن ماهية ذلك الحادث الذي أودى بحياة والديها معًا، لكنها لم تتركه يفكر كثيرًا، قالت:

- لقد احترقا.

- احترقا؟

أومأت موافقة، ثم قالت بلهجة بطيئة وثابتة:

- تفحَّما حتى لم تعد تظهر لهما أيُّ ملامح.

ازدرد الرجل لعابه، فقال:

- تفحَّما؟

أومأت برأسها موافقة، قالت:

- أنا الآن أتذكر المشهد بوضوح تام، كأنه حصل للتو.

ثم اتسعت عيناها فجأة كأنها اكتشفت أمرًا مهمًّا، قالت بشيء من الحماس:

- الآن عرفت سبب هذه الفوبيا التي أعانيها.

لم يجد الرجل أيَّ كلمات ليرد بها، اكتفى بأن أمَّن برأسه موافقًا على كلامها. أسندت لينا ظهرها إلى الجدار، ثم أخذت تنظر إلى السقف وهي تقول:

- الحريق كان قد نشب في بيتنا القديم، أعني الشقة اللطيفة التي كنت أسكنها مع والديَّ، وليس ذلك البيت المتهالك الذي انتقلت لأسكن فيه مع جدتي، حينها كانت لديَّ غرفة نوم كبيرة جدًّا، وفيها سرير وخزانة ملابس لي وحدي، وفيها الكثير من الدمى، وألوان وملصقات جميلة على الجدار.

أخفضت رأسها ونظرت باتجاه الرجل، ثم قالت:

- لكنها احترقت بالكامل، لم يتبقَ أيُّ شيء، المكان بأكمله تحول ليصبح مثل هذه الغرفة.

ازدرد الرجل لعابه مجددًا، لسبب ما كان يشعر بالقشعريرة تسري في أنحاء جسده مثل تيار كهربائي، لكنه ظل محافظًا على هدوئه وثباته، قال بنبرة صوت طبيعية:

- أنتِ كنتِ في الشقة حينما احترقت؟

أومأت موافقة.. تابعت:

- عندما بدأ الحريق كنت مستلقية على السرير في غرفتي، وقتها كنت قد ذهبت إلى الفراش مبكرًا استعدادًا للمدرسة، كنت في الصف الدراسي الثاني.

- وماذا حصل بعد ذلك؟

- احترقا.

كانت تتحدث عن وفاة والديها بأسلوب حيادي يخلو من الانفعالات كما لو أنها كانت حادثة غريبة عنها، هذا ما خطر ببال الرجل الذي ازدرد لعابه للمرة الثانية خلال ثوانٍ معدودة، قال موضحًا:

- لا أقصد ذلك، أقصد كيف بدأ الحريق، ما السبب؟

وضعت كفها اليمنى على ذقنها ومالت بوجهها إلى الجانب قليلًا، بدت مركزة للغاية.

- تقرير المختبر الجنائي قال إنها حادثة، قضاء وقدر، الحريق بدأ في المطبخ نتيجة حدوث تسريب في أنابيب الغاز، والدي مات هناك، على ما يبدو أنه كان يرغب بإعداد فنجان قهوة أو شيء آخر ليشربه، ووالدتي كانت قد ذهبت إلى النوم ولكنها لم تستيقظ، أنا الوحيدة التي نَجَت، لأن غرفتي كانت الأبعد عن المطبخ، ولأنني استيقظت في الوقت المناسب قبل أن تنتشر النار في كل مكان.

أطلق الرجل تنهيدة، سكنت الكهرباء التي كانت تتراقص في جسده واستعاد قدرته على التعاطف الهادئ، قال مخمنًا:

- إذن فقد عُدَّت الحادثة أنها قضاء وقدر.

مال رأس لينا إلى اليمين قليلًا، توجهت عيناها نحو الحائط، ثم عادتا لتنظرا إلى وجه الرجل، قالت:

- الشرطة عدَّت أن الأمر حادثة، لكنه في الحقيقة ليس كذلك.

اتسعت عيناه، قال:

- تقصدين بأن...

أومأت موافقة بهزة رأسها المعتادة، ثم قالت:

- والداي قد تعرضا للقتل، هنالك من أحرقهما عمدًا.

أطرق الرجل مفكرًا هنيهة، لا يزال عاجزًا عن العثور على انطباع محدد، سألها:

- لِمَ أنتِ متأكدة من أنهما قُتِلا؟

- لأنني رأيته.

تنبه الرجل، امتدت رقبته إلى الأمام بحركة تلقائية.

- رأيتِ مَن؟

- رأيتُ القاتل.

هذه المرة أطلق صفيرًا عبَّر فيه عن اندهاشه واستيائه في آن، ثم قال مترجمًا ما اعتراه من مشاعر بالكلمات:

- أنتِ رأيتِ شخصًا غريبًا يجول في البيت، ومع ذلك عُدَّت الحادثة أنها قضاء وقدر!

كتفاها ارتفعتا إلى الأعلى قليلًا ثم هبطتا إلى مكانهما مجددًا.

– لقد رويتُ ما رأيته للجميع، لكن أحدًا لم يصدقني، وأظن أن معهم كل الحق في ذلك، من سيُكذِّب الأدلة والبراهين ويُصدِّق فتاة صغيرة تتمتع بمخيلة واسعة؟

بدت إمارات الغضب جلية على وجه الرجل، قال بانفعال ظاهر:

– الحمقى، كيف لم يصدقوا كلامك؟

– حسنًا، لقد ادَّعوا أنني تخيلت الأمر كله.

– تخيلتِ الأمر؟ ما هذا الغباء؟ نحن نتحدث عن شخصين قُتِلا وغُطِّيَ على الجريمة.

هذه المرة جاء دور الفتاة كي تنظر إليه بتمعن، بدا لها شخصًا متَّزنًا وشجاعًا وقادرًا على التحكم بأعصابه، كما بدا منصفًا وأهلًا للثقة، ولكنه لا يختلف عن البقية، هي متأكدة من ذلك، لهذا لم تعلق أملًا كبيرًا على ردة فعله الأخيرة. قالت:

– المسألة بسيطة، لكن بالنسبة إليهم كانت في غاية التعقيد.

سأل:

– كيف ذلك؟

– بسبب هوية القاتل، الأمر كان أكبر من قدرتهم على الاستيعاب؛ لذا كان من الأسهل للجميع تجاهل ما ذكَرَته الطفلة الصغيرة الموهومة بضمير مرتاح.

لا يزال الغضب يسري في عروقه، كان حانقًا على ما يدور حوله منذ اللحظة التي وجد فيها نفسه في هذا المكان، ذاكرته المفقودة، والخاطفون مجهولو الهوية، وهلاوس الفتاة، قال بنبرة شديدة:

– اللعنة عليهم جميعًا، هل هو شخص بمنصب مهم حتى يُغطُّوا عليه؟

قالت بهدوء:

– لا أعلم فيما إذا كان بإمكانك عدُّه كذلك.

أطلق الرجل زفيرًا طويل المدى، قبل أن يسأل:

– مَن هو إذن هذا اللعين؟

أجابت ببساطة:

– لا أعرفه.

– لكنكِ قلتِ...

قاطعته:

– قلت إنني رأيته، لكنني لم أقُل إنني أعرفه، في الحقيقة لا أحد يعرفه، لهذا السبب لم يصدقوني وعدُّوا ما قلته لهم أضغاث مخيِّلَة فتاة مصدومة.

فكرت قليلًا، ثم قالت:

– أتعلم شيئًا؟ الآن أنا نادمة لأنني أخبرتهم بأنني كنت أشاهد فيلمًا مرعبًا مع والدي قبل أن أخلد إلى النوم، لأنني بذلك منحتهم التبرير الأسهل ليلقوه في وجهي، كان يجب أن أفكر بما سيخرج من فمي قبل أن أفتحه، لكنني كنت صغيرة جدًّا وأبعد ما أكون عن الحكمة.

مدَّ الرجل إحدى يديه إلى الأمام كأنه يطلب منها التوقف عن الكلام، ثم قال:

– حسنًا، أنا لم أعُد أفهم شيئًا.

قالت بالوتيرة الهادئة ذاتها:

– لن تفهم شيئًا حتى لو أخبرتك.

– لِمَ تظنين ذلك؟

ظلت صامتة هنيهة وهي تنظر إليه، ثم قالت:

– مَن قتل والديَّ كان شيطانًا.

تحولت معالم وجهه إلى الامتعاض، أحد جوانب فمه والخد الذي يعلوه ارتفعا إلى الأعلى قليلًا، مع ذلك فقد سأل كي يتأكد مما سمعه للتو.

– ماذا قلتِ؟

– مثلما سمعت، مَن قتل والديَّ لم يكن آدميًّا، كان شيطانًا.

عضت على شفتها السفلى للحظة، ثم تابعت:

– هل عرفت الآن السبب الذي يدفعني إلى التصديق بوجود الأشباح والشياطين بدرجة تفوق عدَّها مجرد هلاوس وتخيلات مَرَضِيّة.

مجنونة، هذه الفتاة مجنونة بلا شك، هكذا همس الرجل لنفسه.

6

المشهد

غرفة معيشة تحتوي على أثاث عصري وحديث نسبيًّا، أريكة مُخمَلية خضراء اللون يجلس عليها رجل ثلاثيني وسيم وبيده كوب خزفي من الحجم الكبير، وابنته الصغيرة تجلس بالقرب منه وقد احتضنت وعاءً مملوءًا بالفشار، وكلاهما ينظر باتجاه شاشة تلفاز بحجم كبير تَعرِض فيلمًا أجنبيًّا بإيقاع سريع وموسيقى تصويرية تقشعِرُّ لها الأبدان.

كانت لينا تجلس بالقرب من والدها على الأريكة نفسها وعيناها مفتوحتان على مصراعيهما ومعلقتان على الشاشة، على الرغم من أن الفيلم كان مصنفًا للفئات العمرية الأكبر سنًّا بسبب محتواه المخيف فإن ذلك لم يكن كافيًا لمنعه من متابعة أحداثه بتركيز شديد. بدت لينا فتاة واثقة بنفسها، وبدت أكثر امتلاءً وأكثر مرحًا وذكاءً، مظهرها كان يبشر بطفولة سعيدة ومريحة. سألت والدها:

– وهل البعبع موجود داخل الخزانة حقًّا؟

أجاب بمرح:

– هذا صحيح، دائمًا يخرج من الخزانة ويخطف ضحاياه، لكنه لا يهاجم سوى مَن يخاف منه فقط، أما الذين يتمتعون بالشجاعة فهو يشعر أمامهم بالعجز.

– لهذا اختطف جميع من في الفيلم باستثناء البطل.

– أحسنتِ، البطل شاب شجاع وتمكن من مواجهته، أما البقية فقد كانوا جبناء، وسمحوا له بأن يقتات على خوفهم.

أطلَّت والدتها برأسها من الممر وهتفت:

– لينا، لقد حان وقت النوم.

قالت البنت معترضة:

– ماما، لم ينتهِ الفيلم بعد.

قالت الوالدة بنبرة حازمة:

– ليس من المفترض أن تشاهدي فيلمًا كهذا في سنّكِ هذه.

عرف والدها أنه المقصود بهذه النبرة، قال:

– لكنها ليست خائفة، هي لا تشعر بالخوف مطلقًا، أليس كذلك يا لينا؟

هتفت لينا بمرح:

- أنا لا أخاف من الوحوش.

أطلق والدها ضحكة عالية قبل أن يقول معقبًا:

- هل رأيتِ، لينا لا تخاف من الوحوش.

أجفلت الوالدة حينما تناهت إلى مسامعها صرخة أنثوية قادمة من الشاشة، صكت أسنانها وكررت بغضب مفتعل:

- لينا، حان موعد النوم.

نظرت لينا إلى والدها مستجدية، لكنه رفع ذراعيه كدلالة على قلة حيلته، زمجرت كتعبير أخير عن احتجاجها البليغ ثم تخلت عن مقعدها الأثير باستياء، قادتها والدتها نحو السرير وأحكمت وضع الغطاء عليها، ولم تنسَ أن تبهجها بحكاية قصيرة ولطيفة قبل أن تقبلها على خدها وتغادر الغرفة، لتبقى لينا وحيدة في العتمة التي لم تكن تخيفها، أغمضت عينيها وبدأت رحلة البحث عن النوم. التقطت أذنها أصواتًا غريبة.

في البداية ظنت بأنها تحلم، لكن عينيها كانتا مفتوحتين، ثم اعتقدت بأنها ربما كانت تتخيل، في حين أن الأصوات القادمة من الخارج سكنت فجأة. هل كانت تلك صرخة التي سمعتها للتو؟

تركت فراشها أخيرًا بعد القليل من التردد، سارت نحو باب الغرفة وفتحته بهدوء ثم مدت رأسها بحذر، لكنها لم ترَ أيَّ شيء خارجًا عن المألوف، تركت الغرفة وسارت في الممر بخطوات بطيئة، وحينها لمحته لأول مرة تحت ضوء لمبة وحيدة وخافتة. ظهر أمامها فجأة قادمًا من جهة المطبخ، كيان أسود بالكامل من رأسه حتى أخمص قدميه، ووجه مظلم بلا ملامح إلا من عينين حمراوين تشعان في الظلام ببريق متوهج.

توقفت كل خلية في جسدها عن الحركة في حين كان ذلك الكيان الغريب يقف أمامها ويحدق إليها بعينيه المخيفتين. حتى عندما بدأ بالاقتراب منها بقيت متجمدة في مكانها، لم تجرؤ على الحركة أو النطق، لم تجرؤ حتى على أن تشيح بوجهها بعيدًا عنه، استعدت للأسوأ وهي تحاول أن تتخيل الطريقة التي سيقتلها بها، وقد استعادت ذاكرتها الصغيرة مشاهد العنف التي احتفظت بها من الأفلام القليلة التي كانت تختلس طريقها لمشاهدتها برفقة والدها.

هل سيقطع رأسها، هل سيخفيها عن الوجود بحيث تبقى روحها عالقة إلى الأبد في عالم موازٍ؟ أم أنه سيختطفها ليحتجزها ببقعة بعيدة ونائية في مسكنه السفلي بحيث لن ترى والديها مجددًا. لكن سلوكه كان مفاجئًا لها للغاية، فقد أمسك بيدها بالطريقة

نفسها التي أمسكت بها والدتها قبل دقائق وأعادها إلى غرفتها، كانت يده صلبة وقاسية، ولكنها لم تكن مؤذية، ساعدها كي تستلقي على سريرها، وأحكم وضع الغطاء فوقها، ثم قال بصوت على الرغم من خفوته الشديد فإنه دبَّ الرعب في أوصالها:

- هذا كله مجرد حلم، عودي إلى النوم.

ثم غادر الغرفة بخطوات غير مسموعة، وتركها ترتعش تحت الغطاء الذي احتوى جسدها المتكور على نفسه. أغمضت عينيها وحاولت أن تنام، النوم كان هو الحل الوحيد ليبعد الخوف عنها، يمكنها أن تبحث عن أحلام سعيدة على الأقل، لكنها لم تتمكن من ذلك، أطبقت على جفنيها بشدة، حاولت أن تستعين بذكريات مضت، بأوقات مبهجة، حاولت إقناع نفسها بأن ذلك الشيطان لم يُرِد أن يلحق بها الأذى وإلا لكان قد فعل ذلك، صحيح، لو رغب في إيذائها لفعل، طلبت حضور النوم لكن النوم رفض أن يستجيب.

ثم فكرت، ماذا لو كانت تتخيل كل ذلك؟ ربما أن كل هذا لا يعدو أن يكون مجرد كابوس عابر، الآن بدا لها كم كانت والدتها محقة في تحذيرها المستمر لها، لهذا فقد اتخذت قرارًا نهائيًّا لا رجعة فيه، لن تشاهد أفلامًا مخيفة بعد اليوم، لكن عليها أولًا أن تتخلص من تبعات هذا الكابوس.

النوم لم يستجِب لأيٍّ من محاولاتها المريرة، وظل بعيد المنال عن جفنيها، في النهاية يئست من استجدائه، عادت لتفتح عينيها لكن لم يكن هنالك سوى السواد، ثم تذكرت نصيحة والدها، لا يوجد في العتمة ما يخيف، لكنها الخيالات التي تنسجها عقولنا هي التي تدب فينا الرعب. لكن ما العمل، في حال شعرت بالخوف؟ «رددي بأنك لست خائفة من العتمة»، قالت لنفسها أنها ليست خائفة من العتمة ولا من الوحوش التي تختبئ فيها.

ثم كررتها مجددًا.. «تذكري أن كل ما تشاهدينه في الأفلام مجرد تمثيل، وأن كل ما ترينه هو مجرد وهم، ذلك الكيان الذي رأيتِه غير حقيقي، لا بسواده ولا بعينيه الحمراوين، هو مجرد شكل مصنوع من وهم اخترعه عقلك».

استمدت شجاعتها من أفكارها الأخيرة، أزاحت الغطاء بفراشاته وورده بعيدًا، تركت السرير الآمن خلفها وسارت باتجاه الباب، لكن خطواتها ظلت مشوبة بالحذر، فتحت الباب ببطء شديد وألقت على الممر نظرة أخرى، كان يخلو من الشياطين، ولكنها لاحظت خيالات تتراقص، لم تتمكن من تمييزها في بادئ الأمر، ثم حين اقتربت أكثر، أدركت بأنها ألسنة لهب تنتشر سريعًا في أرجاء البيت.

كان الحريق قد امتد ليشعل النصف المقابل من البيت، المطبخ والصالة وقسمًا من الممر، هتفت منادية على والديها، ولكنها لم تتلقَّ أيَّ إجابة، هسيس النيران الممتدة كانت الشيء الوحيد الذي يُصدِر صوتًا يفوق نبضات قلبها الذي كان يدق بسرعة، بدأت قصبتها الهوائية تنذرها بأن الهواء النقي كان ينفد تدريجيًّا.

كانت غرفة نوم والديها هي الأقرب إليها، فتحت الباب وهرعت إلى الداخل، تنفست الصّعداء حينما رأت والدتها مستلقية على السرير، ستُوقِظ والدتها وهي ستعرف كيف تتصرف. أزاحت الغطاء عن الجسد المسجى وبدأت تهزه وهي تهتف بأعلى صوتها، لكن والدتها لم تفُق، وجسدها لم يُبدِ أيَّ حركة، لم تفهم الأمر في البداية، عينا والدتها مفتوحتان، ومعالم وجهها كانت غريبة، وقفت أمام مرمى بصرها مباشرة ونادتها مجددًا، لكن والدتها ظلت تنظر باتجاهها من دون أن تراها. لماذا لا تجيب، ولِمَ ترفض أن تتحرك؟

أدركت بغريزتها أن الوقت ينفد بسرعة حين بدأت النار تتغذى على باب الغرفة، أمسكت بيدي والدتها ثم سحبتها عن السرير، لكنها لم تطاوعها مثلما اعتقدت أنها ستفعل، وهوى جسدها على الأرض محدِثًا دويًّا عاليًا، بدأت تشعر باليأس عند هذه اللحظة، وبدأت دموعها تطفر من عينيها بغزارة، طلبت من والدتها برجاء أن تقوم لتقف على ساقيها ولكنها لم تفعل.

جرَّتها حتى منتصف الغرفة، كان هذا أقصى ما أمكنها القيام به قبل أن تشعر بحرقة في عينيها ويبدأ الدوار في اجتياح رأسها، كانت النيران تقترب بسرعة ولم يعد الهواء كافيًا، وجسد والدتها كان أثقل بكثير مما تتصور، وهي كانت على وشك الاختناق.

«والدتك ميتة»، هكذا صرخ فيها عقلها مناشدًا: «انجي بنفسك، لا تزال هنالك فرصة».

غريزة البقاء قادتها إلى الحل الوحيد المتبقي لتنقذ نفسها، تركت يدي والدتها وسارت بخطوات متعثرة باتجاه باب البلكونة، فتحته وخطت إلى الخارج، رحب بها الهواء بنسائم باردة، أخذت تتنفس بشراهة شخص لم يتناول الطعام منذ أيام، لم يعد أنفها كافيًا واضطرت إلى الاستعانة بفمها، شعرت بالدوار لوهلة وكادت أن تسقط، لكنها استعادت عافيتها بعد لحظات.

ألقت نظرة خاطفة باتجاه الغرفة التي تركتها خلفها، سرير والديها الذي كان يتسع لثلاثتهم معًا تحول إلى كتلة لهب كبيرة في لمحة بصر، اتكأت على الحاجز المعدني ونظرت إلى الأسفل، الشقة في الطابق الثاني وتطل على شارع جانبي معتم وخالٍ من أيِّ بَشَر، عمود الإنارة الوحيد كان بعيدًا عند الناصية، حاولت أن تصرخ ولكن صوتها خانها، لم يكن أمامها سوى أن تقفز.

صعدت على حاجز البلكونة، وجلست فوقه وساقاها تتدليان إلى الأسفل، لكنها تجمدت في مكانها. بدت لها المسافة إلى الأرض بعيدة جدًّا. هذه المرة لم تعد غريزة البقاء تقود خطواتها، فقد تدخل عقلها المرتبك ليعيق تقدمها، لم يكن القفز خيارًا سهلًا، ولكن الاحتراق لن يكون كذلك أيضًا، عقلها الصغير الذي كان يواجه تجربته الأولى مع حالة موت وشيك لم يكن يتمتع بالخبرة الكافية ليمنحها قرارًا حاسمًا. أدارت وجهها ونظرت إلى الخلف، رأت النار وهي تلتهم جسد والدتها بنهم. عادت لتركز بصرها إلى الأسفل بحثًا عن النجاة، ولم تنظر إلى الخلف مرة أخرى.

7

على الرغم من تيقنه بأنها ليست بكامل قواها العقلية، وبأن حالتها تتعدى مجرد عقار مخدر بتأثيرات جانبية، فإنه كان مضطرًّا إلى أن يعترف لنفسه بأن حكايتها أصابته بشيء من الرهبة إلى جانب الكثير من التعاطف.

سأل باهتمام صرف:

– هل تذكرين أيَّ شيء آخر عما حدث في تلك الليلة؟

هزَّت رأسها نافية، ثم قالت:

– هذا كل ما يخطر ببالي في الوقت الحالي.

– وهل تذكرين أيَّ شيء عما حدث بعد ذلك.

– عدا عن أن الحادثة قد عُدَّت قضاءً وقدرًا، وعن أن أحدًا لم يصدق كلامي، وعن أنني ذهبت لأعيش في بيت جدتي، لا أذكر أيَّ شيء.

الرجل لم يصدق ما روته له، تبدَّى لها ذلك بوضوح، وبإمكانها بسهولة أن تضمه إلى بقية القائمة التي تضم كل شخص كذَّب حكايتها واتهمها بالتلفيق ونسب لها سعة الخيال، وإن كان لا يزال يتجنب إطلاق الأحكام، وإن كان ظاهرًا بالنسبة إليه أن الفتاة تعاني أزمة. قال:

– اسمعيني، أنا أصدقك، وأصدق بأن هنالك شخصًا يتحمل مسؤولية ما حصل مع والديكِ، لكنني لا أؤمن بوجود الأشباح أو الشياطين أو الجن حتى، كل هذه الأمور التي تعد من الماورائيات هي بالنسبة إليَّ مجرد هباء منثور، أنا أؤمن بالماديات فقط، الأشياء التي لها وزن وتشغل حيزًا، بما يمكن رؤيته ولمسه، المادة هي الحقيقة الوحيدة الثابتة في هذا الكون.

تأملته مليًّا، ثم قالت:

– أظن أن عليك أن تبدأ بتغيير قناعاتك إذن، فقد كدت أن تموت قبل دقائق على يد شبح.

ابتسم الرجل، كانت هذه هي المرة الأولى التي يبتسم فيها في هذا السواد المحيط به.

– اسمعي، الأشباح والأرواح والعفاريت والشياطين وغير ذلك هي مجرد خرافات، أساطير تداولتها الألسنة عبر الأزمنة واكتسبت تأثيرها من كثرة الكلام عنها والتصديق بوجودها ولا أكثر من ذلك.

قالت بإصرار:

– قد تكون محقًّا فيما يتعلق بالأشباح أو العفاريت، لكن الجن والشياطين مخلوقات حقيقية، أنا أؤمن بوجودها.

– مع احترامي الشديد، لكن الإيمان بوجود شيء هو مسألة، ووجود ذلك الشيء الذي تؤمنين به من عدمه هو مسألة أخرى؛ لذا فإن كلامك لا يعني لي شيئًا من دون أيِّ إثبات ملموس.

– يُفترض بالجميع أن يؤمن بالشيء نفسه، نحن نتعرض إلى الاختبارات نفسها.

قال وهو ينظر إليها بدهاء:

– وما الاختبار الذي تعرضتِ له أنتِ؟ أنتِ جربتِ الأمر بنفسك، أخبرتِ الجميع بأن شبحًا أو شيطانًا أو عفريتًا أو أيًّا كان ما رأيتِه قد قتل والديكِ، لكن أحدًا لم يصدق قصتك.

– لأنني كنت صغيرة في السن.

– السن ليس هو المعضلة هنا، حتى لو كنتِ كبيرة لن يتغير في الأمر شيء، لن يصدقك أحد ما لم تأتي بشيء منطقي وقابل للتصديق، يمكن للوساوس أن تكون حقيقية جدًّا، إلى حد أن...

توقف عن الكلام فجأة بعد أن التقطت أذناه صوتًا غريبًا عن المكان، بدا حقيقيًّا للغاية. همس:

– هل تسمعين هذه الأصوات؟

أصاخت لينا السمع، ثم قالت هامسة:

– تبدو مثل همهمات.

– أنتِ تسمعينها إذن.

– نعم.

جيد، فكر الرجل في أنها حقيقية ما دام كلاهما يسمعها في الوقت نفسه، أشار إلى الجدار المقابل لهما:

– الأصوات تأتي من خلف هذا الجدار.

سكت قليلًا، ثم تابع بثقة:

– من خلف الباب السري.

لم تُجِب الفتاة، ظلت حواسها مركزة بالكامل.

- الأصوات تعلو تدريجيًّا.

همس الرجل مؤكدًا:

- هنالك أشخاص يتكلمون في الخارج.

- أسمع همهمات كثيرة لكنها من دون معنى، لماذا يتكلمون بهذه الطريقة الغريبة؟

ركز الرجل سمعه أكثر.

- الصوت يعلو أكثر، حاولي أن تركزي.

بدأت الهمهمات تعلو تدريجيًّا حتى أصبحت أكثر وضوحًا، لكنها بقيت من دون معنى. سألت لينا:

- ما هذه اللغة التي يتحدثونها؟

- لا أعلم، لم يسبق لي أن سمعت شيئًا مماثلًا.

عادت احتمالية أنهم وقعوا في أيدي الإرهابيين تعود إلى ذهنه، غرباء مندسين يسعون إلى الخراب فقط من أجل الخراب. لكن الفتاة كانت تفكر بشيء آخر، قالت بفزع:

- لِمَ أعدادهم كثيرة إلى هذا الحد؟

- لم أفهم.

- يُخيل إليَّ أن هنالك ألف شخص يتكلم في الوقت نفسه.

الأصوات بقيت تعلو حتى تحولت إلى طنين مزعج، صرخ الرجل:

- ما هذه اللغة الغريبة؟

أخفت لينا أذنيها تحت كفَّي يديها وهي تصرخ بدورها:

- هذا ليس كلام بشر، هذا ضجيج شيطاني.

حاول الرجل العثور على تفسير منطقي، لكن كان من الواضح أن هذه الهمهمات ذات النسق السريع والمزعج لم تكن تتبع أيَّ لغة يمكن أن ينطق بها البشر، وضع يديه على أذنيه وهو يصرخ مجددًا:

- ما الذي يحدث؟

مضى الوقت، والهمهمات تحولت إلى طنين مزعج. صرخت لينا:

- لم أعد أحتمل، توقفوا أرجوكم.

لكن الأصوات لم تتوقف، وإنما ازدادت وتيرتها حدة حتى بدأت الجدران تهتز من حولهما، ملايين المسامير المدببة التي كانت تعزف لحنًا عشوائيًّا فوق سطح مصقول بالقرب من مضخمات صوت عملاقة تعمل بقدرة في غاية الفاعلية.

اشتدت يدا الفتاة على أذنيها وتكورت على نفسها مثل جنين يحاول أن يغوص في الرحم أكثر، الألم اخترق طبلتي أذنيهما مثل مثقاب آلي. بدأ الرجل يصرخ بحدة، خُيِّل إليه أن السقف سوف يسقط فوق رأسيهما في أيِّ لحظة، ثم تمنى أن يحدث ذلك؛ أن يسقط السقف فوق رأسيهما. لم يكن هنالك ما يمكن القيام به سوى انتظار الموت الذي أصبح أقرب من أيِّ وقت، استمرت معاناتهما ثواني إضافية بدت مثل ساعات صنعت دقائقها في قعر جحيم مستعر. وفي لحظة واحدة، اختفت الأصوات تمامًا، وذابت في الفراغ كما لو أنها لم تكن موجودة، جدران الغرفة عادت ثابتة مثلما كانت، وحل الصمت بأنغامه العذبة مثل ألواح ثلج في يوم شديد الحرارة.

فتح الرجل عينيه، توقفت الأصوات في أرجاء المكان، لكنها ما زالت تطن في أذنيه، استند بظهره إلى الجدار وأخذ يفركهما بقوة، أذناه أخذتا بعض الوقت حتى اقتنعتا بأن السكون المسالم قد حل مجددًا، سمع الفتاة تقول وهي لا تزال تغطي أذنيها بكفيها:

– هل انتهى الأمر؟

كانت تبكي. قال بنبرة منهكة:

– انتهى.

لكنها لم تسمع ما قاله، اضطر إلى أن يصرخ قائلًا:

– لينا، لقد اختفت الأصوات.

أبعدت يديها عن أذنيها بحذر، ثم تنفست الصعداء، قامت من رقدتها وجلست مستندة إلى الجدار، ثم بدأت تفرك أذنيها بالطريقة نفسها التي فعلها بها الرجل، كأنها تحاول تنبيه قنواتهما السمعية إلّا أن الأمر قد انتهى فعلًا.. وإن كان عقلها لا يزال متشككًا. قالت أخيرًا بعد هنيهة:

– لقد رحلوا أخيرًا.

ثم تنهدت بصوت مسموع، وتابعت باستياء بالغ:

– مَن الذي يفعل بنا كل هذا؟

أجاب الرجل بقلة حيلة:

– ليتني أعرف، كنت سأقتلهم بيدي، ولا تعتقدي بأنني أهذي بأيِّ كلام، سأقتلهم فعليًّا، لن تكون هذه المرة الأولى التي أقتل فيها شخصًا.

نظرت إليه باستغراب.

– أنتَ قتلت من قبل؟

أومأ موافقًا في حين كان عقله يمنحه شيئًا من ذكريات ظن أنه فقدها للأبد.

– لا داعي لأن تقلقي، لأني لم أقتل شخصًا لا يستحق الموت، جميع من قتلتهم كانوا من الأشرار.

– أشرار؟

– أشرار حقيقيون، مجرمون وحثالة، ولن أمانع بقتل المزيد منهم.

– كيف تعرف ذلك؟

سكت الرجل قليلًا، ثم قال:

– لأنني أتذكر الآن، لقد كنت أعمل في القوات الخاصة فيما مضى، قمت بعمليات كثيرة ضد جماعات إرهابية استهدفت أمن البلاد.

– هل هذا حقيقي؟

– أجل، أنا متأكد من ذلك، لكن هنالك عملية بعينها هي التي تجول بخاطري.

– لماذا هذه العملية تحديدًا؟

تنهد الرجل، ثم قال:

– لأنها تركت في نفسي أثرًا مؤلمًا على ما يبدو.

سكت قليلًا في محاولة حثيثة ليخوض في التفاصيل أكثر، ثم قال مؤكدًا:

– مؤلمة بلا شك.

ثم بدأ يروي ما تفتقت عنه ذاكرته بسرعة كأنه يخشى أن تتلاشى مجددًا:

– كنا فريقًا من القوات الخاصة لمكافحة الإرهاب، مع ساعات الفجر الأولى كانت المركبات في الموقع، المكان المستهدف مبنى قديم شبه مهجور، مكون من ثلاثة طوابق، ويقع في منتصف حارة شعبية، لكن المشكلة هي أن المداخل إلى الحارة كانت ضيقة والبيوت انتشرت فيها بكثافة وبعدم انتظام، والمعلومات المتوفرة عن جغرافية المكان والقاطنين فيه كانت قليلة نسبيًّا؛ لذا فإن المهمة كانت غامضة ومحفوفة بالمخاطر، وكانت لدينا أوامر بالتصفية عند الضرورة، قائد المهام كان واحدًا من أعز أصدقائي،

الرائد صفوت، كلانا في الرتبة نفسها، ولكنه كان يفوقني في الدرجة، وكنت أنا الشخص الثاني في الفرقة، وكان لدينا صديق آخر أقل رتبة اسمه ماجد، ثلاثتنا كنا مشتركين في تلك المداهمة. الحي بأكمله كان محاصرًا من جميع الجهات، لكن المكان كان هادئًا على نحو غريب، لم نصادف أيَّ مقاومة تذكر حتى وصولنا إلى المبنى المطلوب، ولم تطلق علينا أيُّ رصاصة حتى، التزمنا تشكيل الاقتحام الذي سبق أن خططنا له، كان لدينا عنصر المفاجأة، وكنا نفوقهم بالعدد والعدة، ولدينا كل التجهيزات اللازمة، لكن ما حصل هو أن الأوغاد كانوا يعلمون بحضورنا مسبقًا، وكانوا قد أعدوا العدة لذلك جيدًا، صفوت وماجد وعدد من الأفراد دلفوا من الباب الأمامي للعمارة المستهدفة، أما أنا فقد تسللت مع فريق آخر من الجهة الخلفية لنحاول النفاذ من نوافذ الطابق الأرضي، ثم كانت المفاجأة.

سكت قليلًا، ثم قال:

- بينما كنت أستعد مع فريقي للدخول من الجهة الخلفية، إذ حدث انفجار.

تيقظت حواس لينا على وقع الكلمة الأخيرة، تابع الرجل:

- الأوغاد كانوا قد تلقوا تحذيرًا مسبقًا بقدومنا، فخخوا المدخل الأمامي ومطلع الدرج بمتفجرات من نوع سي فور، وحين تأكدوا من أن رجالنا أصبحوا بالداخل فجروا المفخخات التي كانت مخبأة عند مطلع السلالم، صفوت وفريقه المكون من خمسة أفراد آخرين استشهدوا في الانفجار، ماجد كان الوحيد الذي نجا بمعجزة، ولكنه فقد ساقه اليمنى.

8

المشهد

صالون واسع بطلاء أبيض حديث نسبيًّا مزين بنقوش متناسقة، أرائك مكسوة بقماش مخملي رمادي اللون وقد انتشرت على ثلاثة جوانب من الغرفة، تتوسطها طاولة من خشب الزان مستطيلة الشكل فوقها أكواب شاي لا تزال ممتلئة عن آخرها، الأريكة الأكبر حجمًا جلست عليها امرأة ثلاثينية بوجه شاحب خالٍ من أيِّ أثر للمساحيق وبلباس أسود كامل، وعلى إحدى الأرائك المفردة يجلس رجل أسمر مستطيل الوجه بلحية متوسطة وبساق واحدة، وقد أسند عكازيه إلى جانب الأريكة، أما الأريكة الأخرى فقد جلس عليها الرجل الذي كان وقتها في منتصف الثلاثينيات من العمر.

قال الرجل مؤكدًا:

- لن أدعكِ تحتاجين إلى أيِّ شيء.

أطرقت المرأة برأسها وأخذت تنظر إلى الأرض.

- المرحوم صفوت كان أعز صديق لديَّ، وأولاده بمكانة أولاد لي، أنا وماجد سنكون موجودين معكم على الدوام.

ثم التفت باتجاه الرجل ذي الساق الواحدة وهو يقول:

- أليس كذلك؟

أفاق ماجد من شروده ثم قال مستدركًا:

- صحيح، بإذن الله لن نقصر معكم.

حركت الأرملة الشابة رأسها بإيماءة شاكرة من دون أن تتكلم. صَمْتٌ كئيب فرض نفسه للحظات قصيرة، تنقل خلالها الرجل ببصره بين المرأة التي كانت تتأمل خطوط السجادة أسفل قدميها وماجد الذي كان يُحدِّق إلى كوب الشاي الذي لم يُمسَّ، قطع الصمت في محاولة يائسة لرفع الروح المعنوية التي تردَّت من حوله:

- صفوت -الله يرحمه- شهيد، عاش بطلًا ومات بطلًا، كان رجلًا شهمًا ومقدامًا، ولم يكن يهاب خوض أعتى المعارك في الصفوف الأمامية، الله يرحمه.

تنهد ماجد، ثم قال:

- كان يمكن أن يكون معنا اليوم لو لم نتعرض للخيانة.

تنبهت المرأة، رفعت رأسها وقالت بصوت فيه غيظ مكتوم:

– هل عرفتما مَن المسؤول عن ذلك؟

قال الرجل:

– ليس بعد، لكن التحقيقات لا تزال جارية، أما فيما يتعلق بالمرحوم صفوت، كوني على يقين من أننا قد أخذنا بثأره.

ثم التفت إلى ماجد وقال:

– وبثأركَ أنت أيضًا يا صديقي.

لم يُجِب الأخير، لكنه جامل الرجل بابتسامة متعبة. قالت المرأة باهتمام:

– أخبرني بما حدث بالتفصيل.

تردد الرجل قليلًا، ثم قال:

– لم يحدث الكثير.

لكن المرأة كانت مصرة، نظرت إليه برجاء وقالت:

– أريد أن أعرف كل شيء.

أومأ الرجل موافقًا، ثم قال:

– عندما انفجرت القنبلة، كنت مع أربعة أفراد آخرين على وشك الاقتحام من الخلف، كان الانفجار مدويًا، الجدران القديمة اهتزت حتى شعرنا بأنها ستسقط فوق رؤوسنا، الأفراد الذين كانوا معي أصيبوا بالارتباك وترددوا في الدخول، لكنني لم أسمح بأيِّ بلبلة، أعدت تأكيد الأوامر السابقة، وكنت أول من قفز من النافذة الخلفية، المنزل الأرضي وجزء من مطلع الدرج قد تهدم، وجثث زملائنا سقطت في أماكن متفرقة، ماجد كان يجلس مسندًا ظهره إلى أحد الجدران التي بقيت ثابتة، وصوت أنينه طغى على صمت المكان، اطمأننت على حالته وطلبت الإسعاف، ثم أجريت مسحًا سريعًا في الأرجاء لكنني لم أعثر لصفوت على أيِّ أثر في حينه، ثم تابعت طريقي إلى الأعلى بحذر، كان القسم السفلي من الدرج متهدمًا لهذا استعنت بأحد الأفراد من فريقي ليساعدني في الصعود، تمسكت بالأسياخ التي برزت من الأعمدة ورفعت جسدي إلى الأعلى لأجد نفسي في ممر الطابق الثاني، أراد بقية الفريق اللحاق بي ولكن الرصاص بدأ ينهمر من الطابق الثالث؛ ما دفعهم إلى التراجع في حين اتخذت لنفسي ساترًا، ثم لجأت إلى إحدى الشقق الموجودة في الطابق الثاني، كان بابها مفتوحًا، دلفت إليها بحذر فوجدتها خالية من الأثاث تقريبًا، عثرت على جثة لأحد المتمردين في الصالة وبجانبه...

توقف عن الكلام فجأة، لكن المرأة نظرت في عينيه مباشرة.

– أكمل لو سمحت، هناك عثرت على صفوت ميتًا؟

مسح الرجل دمعة غير مرئية شعر بأنها هربت من مقلته، ثم قال:

- لقد كان قائدًا شجاعًا، لم يمت فورًا على إثر الانفجار، إحدى الشظايا سببت له جرحًا بليغًا في خاصرته، ولكنه مع ذلك لم يعلن استسلامه وواصل طريقه مشهرًا سلاحه، وزحف إلى الشقة التي في الطابق الثاني حيث وجد أحد المتمردين يختبئ هناك، وأطلقا النار على بعضهما بعضًا.

ثم أطلق ضحكة قصيرة يملؤها الفخر وهو يقول:

- الله يرحمك يا صفوت، حتى وهو يحتضر تمكن من أخذ أحدهم معه.

سكت قليلًا، ثم تابع:

- عند هذه اللحظة اشتعل بي الغضب، قررت ألا أخرج من ذلك المكان قبل أن أقتلهم جميعًا، اثنان من فريقي تمكنا من الوصول إلى الطابق الذي كنت فيه، ثم صعدنا إلى الطابق الثالث مستعينين بنيران الأسلحة الرشاشة التي معنا وبغطاء ناري من فريق الدعم الذي كان بالأسفل، دفعناهم إلى التراجع والاختباء في إحدى الشقق الخلفية، ثم اقتحمنا، لم نجد سوى اثنين منهم على قيد الحياة، أفرغنا جميع الرصاصات التي بقيت معنا وتركنا وراءنا جثتين كل واحدة منهما تحمل مئات الثقوب.

قالت المرأة بتَشَفٍّ:

- لقد فعلتم خيرًا.

- حينما خرجنا من منزل المرحوم صفوت شعرت بشيء من الارتياح لأنني تمكنت من إطفاء القليل من ظمأ أرملة صديقي المتعطشة للثأر، ووعدتها أن يكون هنالك المزيد، أجزم بأنني قد أوفيت بوعدي كاملًا، لكنني للأسف لم أستطِع القيام بأيِّ شيء حيال ماجد، أُحيل إلى التقاعد بعد أن قُطِعت ساقه، حاولت أن أبقى على اتصال به لكنه انزوى في ركن بعيد، وتمكن من عزل نفسه عن الجميع مكتفيًا من الحياة بممارسة صيد السمك وقضاء الوقت في عوامته المنعزلة عند النهر، لست أذكر الكثير عنه حاليًّا، ولا أذكر فيما إذا كنا لا نزال نتحادث أم أن علاقتنا قد انقطعت تمامًا، الذاكرة اللعينة تفرض عليَّ ما تريد أن أراه من دون إرادة مني، لكنني أذكر شيئًا من الحوار الذي جرى بيننا حينما غادرنا منزل المرحوم صفوت، كان حزينًا وناقمًا جدًّا، حتى إنه كان ناقمًا على المرحوم نفسه.

سألت لينا بدهشة:

- ناقمًا على صفوت؟ لماذا؟

- لأنه اعتقد بأن صفوت قد فوَّت على نفسه فرصة النجاة، فقد كان محظوظًا لأنه نجا من الانفجار بنسبة ضئيلة، صفوت كان في المقدمة كعادته، وحين وقع الانفجار

كان قد صعد الصف الأول من السلالم التي تفضي إلى الطابق الثاني قبل أن تنهار من تحته، لم تكن الجروح التي أصيب بها قاتلة، كان من المفترض به أن ينسحب ويرجع إلى الأسفل أو على الأقل أن يلوذ بأقرب مكان ويبقى ساكنًا بانتظار وصول الدعم، لكنه لم يفعل، إنما تابع طريقه إلى الطابق الثاني برغم جروحه، واشتبك مع أحد الإرهابيين، ماجد كان حانقًا على صفوت لهذا السبب، يعتقد بأن ما قام به كان تصرفًا أحمق، لولا رعونته ومخالفته للبروتوكول المعتاد لربما بقي على قيد الحياة، لكنني لم أتفق معه، ما قام به صفوت يتطلب شجاعة نادرة.

علقت لينا قائلة بعد أن انتهى الرجل من السرد:

– أتفق معك تمامًا، لقد كان تصرفًا شجاعًا منه، لكنني لا أفهم، كيف تمكن ثلاثة أشخاص فقط من التسبب بكل هذا الخراب وقتل خمسة أفراد من طاقم مدرَّب وعالي الكفاءة؟

– لم يكونوا يعملون وحدهم، إنهم جزء من تنظيم إرهابي، ومثلما قلت لكِ، لقد علموا بحضورنا مسبقًا؛ لذا فخخوا المكان ثم لاذوا بالفرار، الثلاثة الذين بقوا كانوا مجرد كبش فداء، لكن هؤلاء ليسوا هم المشكلة يا لينا، المشكلة الأكبر تكمن بالوشاة والخونة الذين يتعاونون معهم على إفساد البلد لأجل حفنة من النقود.

– أنت محق.

– لكنني عثرت عليهم جميعًا، بعد استشهاد صفوت أصبحت رئيسًا لفرقة مكافحة الإرهاب، وازداد حجم المسؤولية المنوطة بي، إلا أن المسألة باتت شخصية بالنسبة إليَّ، وجهودي تكللت بالنجاح، فقد قضيت عليهم جميعًا، حظيت بشهرة واسعة في الأوساط الأمنية في وقت قصير، ورُشِّحت لتولي مناصب أكثر أهمية، لكنني لا أذكرها حاليًّا للأسف.

– ماذا عن الواشي؟ هل عرفتم هويته؟

قال وهو يبتسم:

– لقد تمكنا من اكتشاف أمره، لم يكن من ضمن فريقنا، كان واحدًا من أفراد العمليات، طبعًا أنكر التهمة المنسوبة إليه، لكننا عثرنا على تحويلات مصرفية باسمه تمت بشكل منتظم، ولم يتمكن من تفسيرها، إضافة إلى أننا وجدنا مراسلات مشبوهة على بريده الإلكتروني، قُدِّم إلى المحاكمة حيث أدين، وأعدم بعد خمس سنوات.

– خمس سنوات كاملة؟

– نعم، كان لديه محامٍ جيد إن لم تخني الذاكرة، وتقدم له بالكثير من طلبات النقض والاستئناف، وحاول التشكيك في صحة الأدلة والشهادات، لكن العدالة تحققت

في نهاية الأمر.

– هذا هو الشيء الوحيد المشجع الذي أسمعه منذ أن استيقظت في هذا المكان.

ابتسم الرجل بفخر، في حين تابعت متسائلة:

– أمر غريب للغاية هذا الذي يحدث، كيف يمكنك أن تتذكر أسماء أصدقائك ولكنك مع ذلك لا تزال غير قادر على تذكر اسمك.

– ما يحدث معي هو الأمر نفسه الذي يحدث معك، مشاهد معينة تطفو إلى عقلي فجأة، أتذكر مشهدًا بعينه، ولكنني لا أذكر شيئًا عما جرى قبله أو بعده، كأن الذكريات هي التي تختار أن تكشف عن نفسها، في حين لا يملك عقلي أيَّ خيار، لا أدري حقيقةً أيَّ عقارٍ هذا الذي استخدموه معنا.

– يبدو أنك لم تنجز عملك بالكامل وتركت خلفك بعض الأعداء.

– لا تقلقي، سوف أتذكر كل شيء قريبًا، أنا متأكد من ذلك، سأعثر على المسؤول عن كل هذا، وسأحرص على أن ينال جزاءه.

سكت قليلًا، ثم أردف بغضب:

– سأنتقم منه شر انتقام.

شعرت لينا برعشة لا إرادية حينما حلت عبارته الأخيرة بمسامعها، لكنها آثرت السكوت، أشاحت بوجهها باتجاه الحائط ثم استلقت على جنبها وأغمضت عينيها في محاولة يائسة لإبعاد تلك الذكرى التي عادت لتهاجم عقلها من بعيد.

9

المشهد

غرفة مكتب متوسطة الحجم، خزانة ملفات معدنية، وطاولة مكتب خشبية أنيقة المظهر، وعدد من المقاعد الجلدية، وخلف طاولة المكتب يجلس رجل خمسيني يرتدي لباس الشرطة الرسمي، وأمامه لافتة نحاسية كُتِب عليها «رئيس المباحث»، وعلى الطرف الآخر يجلس الصحفي الشاب. تأمل الضابط الكارت للحظات، ثم أعاده إلى الرجل الجالس أمام المكتب.

– إذن، كيف يمكنني أن أخدمك يا سيد معاذ؟

قال الشاب:

– أنا أجري تحقيقًا صحفيًّا عن إحدى الحوادث التي وقعت ضمن اختصاص القسم لديكم.

– وما هذه القضية تحديدًا؟

أخذ الشاب نفَسًا عميقًا كأنه يعيد ترتيب أفكاره، ثم قال:

– الحريق الذي حدث منذ مدة، والذي راح ضحيته محامٍ وزوجته، والناجية الوحيدة كانت طفلة صغيرة.

لم يكن الضابط بحاجة إلى المزيد من التوضيح، فقد أومأ موافقًا وهو يقول:

– أجل، أذكر هذه الحادثة تمامًا، لكن لِمَ أنت مهتم بمتابعة هذا الأمر؟ لقد مضت سنة تقريبًا، كانت حادثة مأساوية، ولكن لا يوجد فيها ما يجذب القراء لإعادة الكلام عنها.

قال معاذ:

– صحيح يا باشا، لكن يمكنك أن تقول إن هنالك بُعدًا شخصيًّا لهذا التحقيق، نادر رحمه الله كان صديقًا مقربًا لي، وقد كان شخصًا طيبًا ومجتهدًا في عمله جدًّا.

أومأ الضابط متفهمًا، ثم قال:

– من حسن الحظ أن الطفلة الصغيرة قد نجت.

– صحيح، لكنها تعاني الكثير من المشكلات النفسية، المسكينة لا تزال تشعر بالاكتئاب والوحدة وتزورها الكوابيس بانتظام.

– الرجل الذي ساعدها في النجاة مسؤول أمني كبير، لكنني لا أذكر اسمه حاليًّا، أذكر وقتها أن الحادثة قد حظيت بتغطية إعلامية واسعة بسبب عملية الإنقاذ التي حدثت، ثم كالعادة، انتهى الكلام عنها بسرعة قياسية.

– أنت حققت بالحادثة بنفسك، أليس كذلك يا سيدي؟

– أنت محق، لكن لم يكن هنالك الكثير للتقصي بشأنه.

قال معاذ وقد طغت الجدية على ملامحه:

– أعرف أن الحادثة عُدَّت قضاءً وقدرًا.

– نعم، أتذكر، إن لم تخني الذاكرة، تقرير المختبر الجنائي أفاد بأن سبب الحريق عائد إلى تسريب في أنبوبة الغاز، المرحوم على ما يبدو كان يرغب في استخدام الفرن، ولكنه لم ينتبه إلى الرائحة، وحينما أشعل النار انتشر الحريق بسرعة كبيرة.

قال معاذ مستعرضًا معلوماته بدوره:

– لقد عُثِر على جثة المرحوم نادر في المطبخ، وكانت متفحمة بالكامل.

– هذا أمر منطقي.

– أما المرحومة زوجته فقد عُثِر عليها في غرفة النوم، وكانت جثتها محترقة هي الأخرى، والفتاة الصغيرة كانت غرفتها هي الأبعد، لكنها تمكنت من الوصول إلى غرفة والدتها، وحاولت إيقاظها من النوم لكن الوالدة لم تستجِب، حاولت أن تجرها إلى البلكونة لكنها لم تجد القوة الكافية لذلك، في النهاية تركتها في منتصف الغرفة ثم ذهبت إلى البلكونة لتطلب النجدة، في الوقت الذي أُنقِذَت فيه كانت ألسنة اللهب قد وصلت إلى والدتها، وبحلول الوقت الذي حضرت فيه طواقم الإطفاء.. كانت النار قد أجهزت على البيت بأكمله.

أمعن الضابط في ذاكرته قليلًا، ثم قال:

– أعتقد أن هذا هو ما حدث بالضبط.

– هنا تكمن المعضلة يا حضرة الضابط.

بدا الانتباه على وجه الرجل ذي الزي النظامي.

– ما الذي ترمي إليه؟

– مثلًا، المرأة كانت ميتة في غرفة النوم، ولكن الفتاة الصغيرة تمكنت من النجاة باستخدام البلكونة التي في غرفة النوم، كيف تمكنت الصغيرة من الفرار في حين لم تتمكن المرأة من ذلك؟ لقد حاولت أن أضع جميع الاحتمالات في الحسبان، كيف حدث

أن نجت الفتاة ولم تنجُ الأم؟ لو أن المرأة اكتشفت الحريق مثلًا وذهبت إلى غرفة الفتاة وأحضرتها إلى غرفتها فكيف لم تتمكن من النجاة معها؟

أخذ الأمر من الضابط بعض الوقت كي يستجمع أفكاره، ثم قال:

– بحسب ما أذكر، فإن الاحتمال الأقرب كان هو أن المرأة أمنت الفتاة أولًا، ثم عادت إلى الداخل لتحاول إنقاذ زوجها، لكنها أدركت متأخرًا أن الأوان قد فات على ذلك، وحينما قررت العودة إلى الغرفة كان الدخان قد وصل إلى رئتيها، فسقطت قبل أن تصل إلى البلكونة.

– لكن المطبخ والصالة كانا قد احترقا تمامًا، من السهل على الأم أن تدرك أن الأوان قد فات على إنقاذ زوجها مبكرًا جدًّا، فهي لن تتمكن من العودة إلى الممر بأيِّ حال، ثم ماذا عن شهادة الفتاة الصغيرة يا سيدي؟

– ما بها؟

– الفتاة قالت إنها غادرت غرفتها واكتشفت الحريق الذي كان قد وصل إلى الممر، فدخلت غرفة نوم والديها حيث ادَّعت بأن والدتها كانت نائمة على السرير، حاولت إيقاظها مرارًا ولكنها لم تتمكن من ذلك، حينها اضطرت إلى جرها قبل أن تخور قواها وتتركها على الأرض.

حاول الضابط أن يعود بذاكرته مجددًا، لكنه لم يعثر على الكثير من التفاصيل الإضافية.

تابع معاذ:

– مستحيل قطعًا أن الأم كانت نائمة، في الوقت الذي وصلت فيه الطفلة إلى غرفة والديها كانت الأم ميتة سلفًا.

قال الضابط من دون تفكير:

– ربما أنها تعرضت للاختناق في أثناء نومها.

قال معاذ نافيًا:

– غير ممكن يا سيدي، لو أن المرأة تعرضت للاختناق فكيف لم تتعرض الفتاة لذلك؟ لا يا سيدي، لا بد من وجود تفسير آخر.

عند هذا الحد فهم الضابط ما يرمي إليه الصحفي.

– آه، تعتقد إذن أن هنالك شبهة جنائية، وأن الجريمة قد تمت بفعل فاعل؟

تردد معاذ قليلًا، ثم قال مؤكدًا:

– هذا بالضبط ما أظنه يا سيدي، أظن أن شخصًا تسلل إلى البيت وقتل نادر وزوجته، ثم أضرم النار في المكان، وأظهر الأمر على أنه حادث.

استرخى الضابط في مقعده أكثر في حين اتخذت المحادثة منحى أكثر إثارة، وقال:

– إذا كان هذا صحيحًا، فأنت تتحدث عن شخص محترف وقادر على ارتكاب جريمة قتل بدم بارد، ومن دون أن يخلف وراءه أيَّ أثر.

– هذا بالضبط ما أرمي إليه، حرق البيت بأكمله هو الوسيلة المثلى لإخفاء أيِّ أثر، وجعل مهمة المختبر الجنائي عسيرة للغاية.

أومأ الضابط برأسه موافقًا ثم قال:

– حسنًا يا سيد معاذ، ماذا لو قلت لك إنني بحثت في هذه الاحتمالية، ولكنني لم أصل إلى أيِّ دليل، بحسب ما أذكر، لم يكن هنالك أيُّ شهود، حارس العمارة أنكر أنه رأى أيَّ شخص غريب يدخل أو يخرج من العمارة في تلك الليلة، ولم يلاحظ أيَّ حركة تثير الريبة، وحققنا مع جميع الأعداء المحتملين وأيَّ شخص له مصلحة في موت والد الفتاة مهما كان الاحتمال ضئيلًا، لكن لم نجد أيَّ شيء، وراجعنا جميع القضايا التي كان المرحوم يترافع بها في الوقت الذي سبق الحادث، ومع عدم توفر أيِّ مشتبه به، ومع نقص المعلومات التي حصل عليها المختبر الجنائي التي يمكن أن تثبت أن الحريق مفتعل، وتعذُّر الحصول على الكثير من جثث الضحايا التي احترقت بالكامل، لم يكن لديَّ أيُّ شيء يدعم فرضية وجود جريمة، لقد كانت لديَّ شكوكي الخاصة بسبب السرعة الكبيرة التي انتشرت فيها النيران، لكنني لم أصل إلى أيِّ شيء.

– لكن الفتاة قالت إنها رأت شخصًا.

كادت أن تفلت من الضابط ضحكة، ثم قال:

– حسنًا، أخبرني أنت إذن، ما الذي رأته الفتاة تحديدًا؟

فتح معاذ فمه ليتكلم بتعجل، لكن سرعان ما انطفأت حماسته، تابع الحديث بهدوء وبشيء من التردد:

– لينا قالت إنها رأت شيئًا يشبه الآدميين لكن لونه كان أسود، وملامحه غير ظاهرة، وعينيه حمراوان، شيء أشبه بشيطان أو عفريت.

قال الضابط وقد اكتفى بالابتسام:

– هل تعتقد أن بإمكاني أن أتابع البحث عن قاتل استنادًا إلى شهادة مثل هذه.

– لكن هناك حارس العمارة، شاب من الأرياف اسمه عوض، قال في شهادته إنه رأى شخصًا غريبًا عن المكان يدخل من باب العمارة قبل الحريق بوقت قصير، ولكنه لم

يتمكن من رؤية ملامحه جديًّا، لأن الرجل بحسب قوله حرص على أن يتسلل إلى المكان خُلسة، ولكنه فيما بعد غيَّر أقواله وادَّعى أن الرجل الذي رآه يدخل العمارة هو أحد قاطنيها.

قال الضابط وهو يبتسم:

- إذن، ما الذي استنتجته من ذلك؟

- لا أعرف، حينما أتيت للبحث عن عوض لم أجده، أخبرني الحارس الذي حل محله أن عوض ترك العمل منذ عدة شهور وعاد إلى الأرياف، لم يكن يعرف عنوانه، ولا توجد أيُّ وسيلة للاتصال به.

- إذن، كل ما لديك هو شهادة الفتاة الصغيرة، التي كانت على الأغلب من وحي خيالها، الفتاة قالت بنفسها إنها كانت تشاهد فيلمًا مخيفًا برفقة والدها قبل أن تخلد إلى النوم، هل عليَّ أن أبني فرضية ما بناءً على ذلك؟

قال معاذ بشيء من الإحباط:

- بالطبع لا، أظن أنك محق.

حينما غادر معاذ كان الضابط لا يزال يضحك وهو يقول:

- القاتل شيطان بعيون حمراء، كيف يمكن أن نجد مجرمًا بهذه المواصفات؟

10

هل غفت؟ لا تعلم على وجه التحديد، ما حدث هو أنها شعرت بأنها تطفو في الهواء بين خيالات ضبابية لا تحمل ملامح محددة، تدور حولها في صمت، كانت تطوف في أرجاء عالم موازٍ، مفترق طرق، لا تعرف إلى أيِّ نهاية سيفضي بها، دارت عيناها في كل مكان، أصاخت السمع لتبحث عن أيِّ أصوات ضلت الطريق مثلها، ثم سمعت.

- لينا.

هذا اسمها ولا يمكن أن تخطئ به، همسة شاردة خرجت من بين الظلال، أصاخت السمع أكثر.

- لينا، لينا.

اسمها يتردد مجددًا، أخذت تتلفت حولها لتبحث عن مصدر الصوت، سرعان ما تبدل المشهد بالكامل، تلاشت المدارات الخيالية وعادت الجدران السوداء التي تكتم الأنفاس. ناداها رفيقها مجددًا من الطرف الآخر من الغرفة:

- لينا، أين سرحتِ؟ انتبهي.

قالت بتثاقل:

- يبدو أنني غفوت قليلًا.

- غفوتِ؟ عيناك كانتا مفتوحتين طوال الوقت، لقد كنتِ تحدقين إلى السقف بغرابة.

- السقف؟ لا أذكر أيَّ شيء.

- دعينا من هذا الآن، انتبهي أرجوكِ، انظري حولك.

أجفلتها نبرة صوته التي يملؤها القلق، سألت واجفة:

- ما الذي يحدث؟

- انظري حولك جيدًا، هل ترين هذا الدخان الذي يتصاعد من كل مكان.

تنبهت الفتاة، كان الضباب الأسود يغلفهما من كل جانب، قالت:

- ما هذا؟

- لا أعلم، كوني حذرة فقط.

تراجعت بجسدها إلى الخلف في فزع وهي تقول:

- ما هذا الشيء؟

قال بغضب مغلف بالخوف:

- قلت لك لا أعرف.

- وكيف عليَّ أن أكون حذرة؟ هل...

فجأة اختنقت الكلمات في جوفها، وتحولت إلى همسات ثقيلة وغير مفهومة، ثم سقطت على ظهرها وغابت عن الوعي، فهم الرجل الأمر، لكن الأوان كان قد فات، رئتاه امتلأتا بذلك الدخان الغريب، بدأ الخدر يتسلل إلى كل حاسة من حواسه، أصبح لسانه ثقيلًا ودماغه أثقل، وشُلَّت أطرافه عن العمل. فكر في أنهم قد فعلوها به مجددًا، هل هذا هو ما حدث في المرة الأولى؟ وما هذه الغازات التي لا توجد لها أيُّ روائح مميزة، لم يكن استنشاقها يختلف عن الأوكسجين بأيِّ شيء.

في اللحظة التالية ارتطم جسده بالأرض وغاب عن الوعي، لكن لم يمضِ سوى القليل من الوقت قبل أن يفتح عينيه مجددًا. هذه المرة لم تكن هنالك أيُّ دوامات، ولم يكن رأسه يدور، لكن ما كان بانتظاره كان أشد سوءًا بمراحل.

ألمٌ مبرح يسري في كل ذرة من جسده، ألمٌ يشعل خلاياه وعظامه على شكل ومضات متتابعة، سكاكين تلتوي نِصَالُها داخل لحمه، لم يتمكن من كتم صراخه الذي هدر ليرتد صداه عن الجدران السوداء التي تحيط به، في حين لم تكن لينا تقوى على الصراخ، اكتفت بأنّات خافتة ودموع صامتة، الألم الذي اكتسح جسمها لم يكن أقل حدة، كانت تتلوى على الأرض مثل أفعى تغسل جلدها بالتراب.

ألمٌ، ألمٌ، ألمٌ... في حين أن كل ما لديهم هو المزيد والمزيد من الصراخ المحموم. في اللحظة التي اعتقدا فيها بأنهما سيسلمان الروح، اختفى الألم فجأة، من دون أيِّ مقدمات، ومن دون أن يترك أيَّ آثار خلفه، زال تمامًا كأنه لم يكن. كانا محظوظين جدًّا، لأن هذا الألم الغريب لم يستمر سوى ثوانٍ فقط، لكنه أحدث دويًّا يساوي ألم عُمْرٍ بأكمله.

تنفس الرجل الصعداء، كان يتنفس ويئن في الوقت نفسه، لكن أنينه كان تعبيرًا صريحًا عن ارتياحه، لم يكن قد خرج من القفص الذي كان محتجزًا فيه، ولكنه كان أحسن حالًا بمراحل مما كان عليه قبل دقيقة واحدة فقط، حينما تمنى أن يأتيه الموت ليريحه من ذلك الألم الهائل الذي لا يعرف مصدره، والذي حوَّل لحظات حياته البائسة إلى جحيم حقيقي. كان عذابًا بكل معنى الكلمة، عذابًا لم يسبق له أن عرفه في حياته كلها.. وإن كان فاقدًا للذاكرة. استند إلى الجدار الأسود خلفه، الذي أصبح مُعِينه الوحيد في هذا السجن، نظر إلى الفتاة التي كانت لا تزال ملقاة على الأرض مثل شاة مذبوحة، أناتها صارت أكثر وَهْنًا، ولكن جسدها لم يعد متشنجًا، ظل يستمع إلى آهاتها المتباعدة من دون أن يقوى على الكلام حتى سكنت تمامًا.

- هل أنتِ بخير؟

لكنها لم تجبه، ولم تتحرك أيُّ خلية في جسدها، لم يأتِه من ناحيتها سوى السكون الذي حلَّ على المكان مثل لعنة تنذر بخراب قادم على الطريق، بدأ الرجل يفكر في أنه قد أصبح وحيدًا في هذه الغرفة. كرر بصوت أعلى:

- لينا، هل أنتِ بخير؟

ثوانٍ أخرى مرت ثقيلة وبطيئة وساكنة قبل أن يبادر جسدها بحركته الأولى، وثوانٍ إضافية أخرى مضت قبل أن تستعيد قدرتها على الكلام. قالت بصوت مرتعش:

- هذا أسوأ شيء مررت به في حياتي كلها، أعلم بأني قلت الشيء نفسه عن تلك الأصوات المريعة التي حدثت من قبل، لكن هذا أسوأ بكثير.

تنهد الرجل بشيء من الارتياح، قال:

- بالرغم من أنني أكبرك بالكثير من الأعوام، فإنني أشاركك الرأي.

- لقد كنت أتمنى الموت قبل لحظات.

- وأنا أيضًا، تمنيت الشيء نفسه.

تحسست جسمها وأطرافها كأنها ترغب في أن تتأكد من أن كل شيء لا يزال في محله، ثم قالت:

- ما الذي حصل؟

- لقد فعلوها بنا مجددًا.

حاول أن يُضمِّن نبرته شيئًا من الغضب والحنق اللذين يعتملان بداخله، لكنه لم يستطِع القيام بذلك، جسده لا يزال يخشى أن يعاوده الألم في حال بذل أيَّ مجهود إضافي ولو على هيئة انفعال لا يقدم شيئًا، تابع كلامه قائلًا:

- كان الأمر مثلما توقعت، لقد تعرضنا لغازات سامة، لن أستبعد أن تكون لها آثار كيميائية حتى.

- لقد تعرضنا للعقاب بسببك.

راقبها وهي ترفع جسدها الضعيف لتستند إلى الجدار الذي خلفها، ثم قال:

- ما الذي تعنينه؟

قالت بهدوء كأن بصيرة قد تجلَّت أمامها:

- أنت من بدأ التهديد، هل نسيت؟

- ما زلت لا أفهم.

- أنت قلت إنك ستنتقم من الشخص الذي حبسنا في هذا المكان، وها قد تلقينا العقاب.

ازدرد لعابه، لكن صوته ظل ثابتًا على الموقف المخالف، قال:

- لا بأس، هذا كله من فعل بشر مثلنا، وجميع البشر يمكن تدبر أمرهم.

حاولت أن ترسم على وجهها ضحكة ساخرة لكنها لم تنجح، قالت:

- ما زلتَ تظن أن من فعل بنا كل هذا كائن بشري؟

فتح فمه ليقول شيئًا لكن دماغه أعاق لسانه، ولم يعثر على أيِّ كلمات مناسبة، اتكأ على إحدى ذارعيه واكتفى بتأمل الجدار الأسود.

11

كان الوقت يمضي كئيبًا، واليأس يتشكل فوق رأسيهما مثل سحابة تكبر تدريجيًّا، كانا قد تعافيا من نوبة الألم التي انتابتهما قبل دقائق أو ساعات، وبدآ يستعيدان نعمة تبادل الكلام. حاولت لينا أن توضح له مجددًا أن ما يحصل لهما هو أمر خارق للطبيعة، قالت مؤكدة:

– نحن لا نفهم ما يجري لنا، لكن ما لا نفهمه لا يعني بالضرورة ألا يكون حقيقيًّا.

رمقها الرجل بنظرة ضجرة، تابعت:

– هنالك الكثير من الأشياء التي تحدث حولنا، ولكننا لا نملك تفسيرًا لها، هل هذا يعني أن ننكر حدوثها.

– لا، بل يعني أن نبحث عن تفسير علمي أو منطقي، تفسير يقبله العقل.

– كيف تفسر الألم الذي أصابنا إذن؟

– هذا من التأثيرات الجانبية لأيٍّ كان العقار الذي خُدِّرنا بوساطته، لقد تمكنوا من التلاعب بأفكارنا بطريقة ما، كي نصدق أن الألم الذي نعانيه كان حقيقيًّا، وعقولنا ابتلعت الطُّعم، العقل الباطن لا يفرق بين الحقيقة والوهم ويتأقلم مع الفكرة التي بثثتِها له أيًّا كانت ماهيتها، هناك شخص بعينه تسبب في هذا لنا، لا شيطان ولا جني، بل إنسان من لحم ودم، وهو الشخص نفسه المسؤول عن احتجازنا.

تنهدت لينا، رفعت رأسها عن الأرض ونظرت إلى الرجل، كانت على وشك أن تقول شيئًا، ولكن الكلمات احتبست في حلقها، تنبه الرجل إلى التغيير الذي طرأ على ملامحها، قال ساخرًا:

– ماذا هناك الآن؟

– هنالك شيء خلفك.

قال ساخرًا:

– آه، صحيح، كيان أسود بعينين حمراوين ويحاول أن يخنقني، مَن صادف أنه يشبه الكائن الشيطاني الذي قتل والديكِ.

قالت متلعثمة:

– هناك نار خلفك.

– نار؟

صرخت فجأة بنبرة أقرب إلى بداية حالة هستيرية:

- سوف تحترق.

التفت الرجل أخيرًا ولكن متأخرًا، النار التي توهجت في الجدار من خلفه انتشرت ألسنتها بسرعة شديدة، قال متسائلًا:

- ما هذا الجنون.

لكنه لم يتابع كلامه، فقد أمسكت النار بساقه، كانت لينا تصرخ وهي تحدق إليه وقد أحاطت خدها بكفيها، لكنه تجاهل النار، قال لنفسه:

- هذا مجرد وهم.

بدأت الحرارة تلهب جلده، قال بصوت عالٍ:

- هذا الألم كله في عقلي فقط.

أخذت النار تنتشر في أجزاء جسده، تحول صراخ الفتاة إلى ضجيج جنوني بلا انقطاع، بقي يصرخ قائلًا:

- كل هذا وهم.

لكن الألم كان وقعه شديدًا إلى الحد الذي منعه من الكلام، كان قد تحول إلى كتلة من اللهب، حينما نظر إلى يديه المشتعلتين أدرك بأنه كان يحترق فعليًّا، حاول أن يفر هاربًا ولكن القيد تسبب في سقوطه على الأرض، ثم أخذ يتلوى ويدور حول نفسه في محاولة يائسة لإيقاف النار، ازداد صراخه حدة حتى تعطلت أحباله الصوتية عن العمل، لكن لينا استمرت بالصراخ وعيناها معلقتان على كتلة الجلد واللحم التي كانت تتفحم تدريجيًّا.

المشهد

سوقٌ شعبية في قرية ريفية، متاجر قديمة مبنية من الطوب تنتشر على كلا الجانبين، وبضائع بسيطة تتراكم على جنبات الطريق الضيق، نساء بعباءات سود، ورجال بجلابيب وعمامات يطوفون في الأرجاء، وباعة يهتفون بصوت عالٍ. استوقف معاذ رجلًا يرتدي جلبابًا أزرق اللون ويجر أمامه عربة محملة بالخضراوات، سأله عن منزل عائلة عوض، في حين تأمله الرجل بإمعان شديد.

- أنت لست من هنا؟

- لا، أنا من العاصمة، ولديَّ أمانة أحملها إلى عوض.

نظر إليه الرجل في شك.

- أيُّ أمانة هذه؟

كان معاذ مستعدًا لسؤال مماثل، قال وهو يرسم على وجهه ابتسامة:

- باقي حسابات بيني وبينه، أنا أسكن في العمارة التي كان يعمل حارسًا لها، وقد كنت مسافرًا وتركت له مهمة العناية بالبيت وتنظيفه ريثما أعود، وحينما رجعت وجدت البيت نظيفًا ومرتبًا، ولكنني لم أجد عوض، ثم عرفت بأنه ترك العمل وعاد إلى البلدة قبل أن تتاح لي الفرصة لأعطيه أجرته، لهذا بقيت أسأل عنه حتى تمكنت من الوصول إلى عنوانه، وكنت مارًّا بالقرب من هنا فوجدتها فرصة لأزوره وأعطيه حسابه.

- هممممم.

رفع الرجل يدًا ووضعها على ذقنه.

- يبدو أنك كنت مسافرًا لوقت طويل إذن.

كان أسلوب الرجل في الكلام مربكًا لمعاذ، قال بحذر:

- صحيح، عدة شهور.

- لهذا السبب لا تعلم ما الذي حدث مع عوض.

- وما الذي حدث مع عوض؟

نظر الرجل إلى وجه معاذ متفحصًا، ثم قال:

- عوض تُوفِّي.

بدت الصدمة جلية على ملامح معاذ، كانت صدمة عفوية ولكنها منحت الرجل انطباعًا بصدق نوايا الزائر الغامض؛ لذا تخلى عن جموده بعض الشيء، قال متابعًا بصوت أكثر تعاطفًا:

- عوض أعطاك عمره قبل شهر تقريبًا.

- كيف مات؟

هزَّ الرجل كتفيه دلالة على الجهل، ثم قال:

- مات، هكذا فجأة، كان سهران مع «عربي» بالقرب من المقبرة، ابتعد «عربي» عنه ليقضي حاجة وحينما عاد وجده ميتًا.

- هل كان يعاني مرضًا مثلًا؟

- أبدًا، صحته مثل الحديد، لكن شيطان المقابر ظهر له فجأة.

ضاقت عينا معاذ، أعاد العبارة بنبرة استفهامية:

- شيطان المقابر؟

أومأ الرجل موافقًا، ثم قال مؤكدًا:

- هذا ما قاله عربي، شيطان المقابر ظهر لابن عمه، رجل مخبول، أليس كذلك؟

قال معاذ:

- يبدو لي كذلك.

بدأ الرجل يقهقه وهو يقول:

- لأنه يعتقد أن شيطان المقابر ظهر للمرحوم عوض.

- ما شيطان المقابر هذا؟

رفع الرجل كلتا يديه وهو يقول:

- وما أدراني أنا؟ كله مجرد كلام فارغ، لا يوجد شيء اسمه شيطان مقابر ولا خلافه، كلها خرافات.

أومأ معاذ موافقًا، ثم قال:

- معك حق، خرافات فعلًا، المشكلة أن هنالك من يصدقونها.

- لا يوجد شيطان يعيش في المقابر.

- صحيح.

- الشيء الذي ظهر لعوض ليس شيطان المقابر، لقد كانت النداهة.

توقف الكلام في حلق معاذ لوهلة، نظر إلى محدثه بإمعان، ثم سأل:

- نداهة؟

قال الرجل بحماس:

- طبعًا، هذا هو السبب في وفاة عوض، النداهة همست باسمه.

- ما الذي تقوله؟

- أجل، أنت محق، لم يكن يفترض به أن يجيب عليها، لقد سحرته وأخذت روحه.

أخذ معاذ يهز رأسه يمنة ويسرة في محاولة لطرد العبث من رأسه، ثم قال:

- اسمع، أريدك أن تأخذني إلى ابن عم عوض هذا، الشخص الذي كان معه في تلك الليلة.

- تقصد «عربي»؟

- نعم، «عربي»، هل يمكنك أن ترشدني إليه؟

وضع الرجل يده على ذقنه وهو ينظر إلى معاذ في تشكك.

- في البداية تسأل عن عوض -الله يرحمه-، والآن تريد «عربي»، ما حكايتك أيها الرجل؟

قال معاذ:

- اسمع، إذا أرشدتني إليه سأعوضك عن الوقت الضائع.

ثم مد يده إلى جيبه وأخرج محفظته، نظر الرجل إلى المحفظة وهو لا يزال يضع يده على ذقنه، بدا أنه يفكر في العرض.. وإن كان قد استغرق وقتًا أكثر من اللازم، ثم قال أخيرًا:

- حسنًا، سأرشدك إلى «عربي».

12

فتح الرجل عينيه. لم يمض الكثير من الوقت حتى يستوعب ما حدث معه للتو قبل أن ينتفض واقفًا على قدميه مثل ملسوع، أخذ يقلب كفيه أمام عينه ليتأكد مما إذا كان جلده لا يزال سليمًا، ثم أخذ يتلمس كل موضع من ملابسه وجسده، وتلمس شعره ووجهه. لا تزال جميع أعضائه موجودة وسليمة، كلٌّ في موقعه. تنفس الصعداء، ثم تنبه أخيرًا إلى الفتاة التي كانت قد تكورت على نفسها وهي تغطي وجهها بكفيها وترتعش مثل ورقة شجر هاجمتها عاصفة هوجاء.

- لينا.

توقف الجسد عن الارتجاف، ونزلت يدها إلى الأسفل لتستقر في حجرها، حملقت فيه غير مصدقة.

- أنت سليم؟

قال وهو يمد يديه بحركة استعراضية:

- سليم تمامًا.

- لكنك كنت تحترق! لقد رأيتك بعيني.

أطلق زفرة عالية، قال:

- لقد تعرضت لآلام مبرحة، مثل المرة الأولى، لكنني بخير، لم يحصل لي أيُّ شيء كما ترين.

- لكنني رأيتك تحترق.

- صحيح، لقد كنت أحترق، هذا يلخص ما كنت أحاول أن أشرحه قبل قليل، عقار يتلاعب بالأفكار، لقد شعرت بأن ما حصل لي كان حقيقيًّا للغاية، المشهد، والألم، والجلد الذي كان يذوب، والشعور بالاختناق... لقد كان الأمر كما لو...

توقف عن الكلام بحثًا عن وصف مناسب، لكن لينا قالت:

- كما لو أنك كنت تحترق في الجحيم.

نظر إليها للحظات، ثم قال:

- الجحيم، هذا مصطلح أسطوري، أشك في أن تكوني قد قرأتِ شيئًا لـ «دانتي».

ثم جلس على الأرض، قال:

- لقد كانت تجربة مؤلمة جدًّا، هؤلاء الملاعين، لكنني لن أستسلم لمثل هذه الترهات...

ثم توقف عن الكلام فجأة وقد لمعت عيناه، عدلت الفتاة من وضعية جلوسها وسألته بلهفة:

- هل تذكرت شيئًا؟

- صحيح، لقد تذكرت.

ثم حدق إليها بإمعان غريب، لمعت عيناه وهو يقول:

- هذا شيء لا يُصدق.

- ما الشيء الذي لا يُصدَّق.

- حسنًا، أظن بأنه سبق لنا أن التقينا من قبل، منذ وقت طويل جدًّا.

- حقًّا، هل نحن نعرف بعضنا فعلًا؟

- لست متأكدًا مما إذا كنا نعرف بعضنا، لكنني أذكر المرة الأولى التي التقينا فيها، وقتها كنتِ طفلة صغيرة في الثامنة.

نظرت إليه مستفهمة، قال موضحًا:

- لينا، أنا كنت الشخص الذي أنقذك من الحريق في ذلك اليوم.

المشهد

شرفة منزل يقع في الطابق الثاني لعمارة سكنية، وتطل على شارع جانبي خالٍ إلا من بعض السيارات التي ركنت على جانبيه، وعمود إنارة وحيد عند الناصية الأبعد، فتاة صغيرة ترتدي بيجامة قطنية زرقاء تجلس على حافة الحاجز المعدني وخلفها أفواج من دخان أسود يبحث عن طريقه للخروج إلى الهواء الطلق.

ما الذي عليها القيام به؟ جلست على حافة الحاجز المعدني وقد تمكنت منها الصدمة، قلبها ينبض بشدة وعقلها قد تعطل عن العمل في حين كانت حواسها تخفت تدريجيًّا، لم تعد تملك الجرأة على أن تنظر إلى الخلف مجددًا، أصبحت على يقين من أنها لن تبصر أيًّا من ماضيها الذي كان مشرقًا وزاخرًا بالذكريات السعيدة قبل دقائق قليلة فقط، الآن لن تجد هناك سوى ألسنة اللهب التي أحرقت كل شيء خلفها.

لم يبقَ لديها سوى تلك الظلمة التي تختفي في الأسفل. الوقت كان قد تجاوز منتصف الليل، والطريق الجانبي الذي تطل عليه كان خاليًا من المارة تقريبًا، لم ترَ أمامها سوى ذلك الرجل الذي خُيِّل إليها أنه يلوح لها بيده، لكنه لم يتكلم معها، بقي ينظر إليها من الأسفل كأنه يفكر فيما يجب أن يفعله بالضبط.

هل كان يشير إليها بأن تقفز؟ لم تكن تملك لا الجرأة ولا الرغبة لتفعل ذلك، بدأت تفكر جديًّا فيما إذا كان من الأفضل لها أن تبقى في مكانها حتى تصل إليها النيران وتلتهمها مثلما فعلت مع والديها، إذا كان بإمكانها أن تختار بين أن تموت مع كل من أحبها في العالم أو أن تستمر في الحياة من دونهما، لربما من الأجدر أن ترحل معهما.

لِمَ لا تدع اللحظة الأخيرة تختار عنها؟ الرجل في الأسفل لا يزال يحافظ على رباطة جأشه على الرغم من أن النوافذ التي أمامه كانت أشبه بعيني تنين غاضب، اقترب من المبنى وبدأ يتفحصه بعناية قبل أن يقرر ما الذي يجب عليه القيام به، شمر عن ساعديه ثم بدأ يتسلق ماسورة المياه صعودًا إلى الأعلى، راقبته الفتاة وهو يقترب منها.. لكنها لم تحرك ساكنًا ولم تُبدِ أيَّ ردة فعل.

استمر الرجل في الصعود برشاقة واحترافية، وصل إلى البلكونة ومد يده ليمسك بالحاجز المعدني، ثم طلب منها الاقتراب منه. لكنها لم تفعل. كرر مجددًا:

- يا صغيرة، اقتربي مني، لا تخافي.

لا استجابة.

عندها قرر أن عليه أن يتصرف وحده، مد يده الأخرى ليتعلق بالحاجز ثم رفع جسده إلى الأعلى بخفة وقفز إلى البلكونة، لاحت منه التفاتة باتجاه النيران التي كانت قد أجهزت تقريبًا على معظم محتويات الغرفة، اقترب من الفتاة وأمسكها من ملابسها ورفعها إلى الأعلى بيد واحدة، لم تستجب ولم تقاوم، كانت أشبه بدمية من الحجم الكبير، تنبه أخيرًا إلى الجلبة التي بدأت ملامحها تتشكل في الأسفل خلال الوقت القصير الذي استغرقه بالصعود.

نظر بترقب، ميَّز شبحان ثم ثلاثة ثم أربعة، وسمع أصواتًا تتداخل مع بعضها بعضًا، همهمات تعلو وتقترب من الصراخ. سمع صوتًا يصرخ فيه:

- ارمِ لنا الفتاة.

- أحضروا بطانية.

- هل اتصلتم بطواقم الإطفاء؟

- ارمِ الفتاة واقفز بسرعة.

زفر بصوت عالٍ. أزعجته الضجة التي تكومت بسرعة قياسية أكثر من ضيقه بسبب النيران التي تشتعل خلفه، بدأت النوافذ تفتح على مصراعيها ووجوه أخرى أخذت تطل من شرفات المنازل القريبة، وبدأ سكان المبنى السكني ينزلون من العمارة خوفًا من انتشار الحريق، كل هذا حدث في وقت قصير جدًّا، جميعهم ظهروا فجأة من العدم

كأنهم غادروا قاعة سينما فور انتهاء العرض بعد أن كان الشخص الوحيد تقريبًا الذي انتبه إلى وجود الحريق.

فكر فيما يجب عليه القيام به، لكن الوجوه التي تراقبه لم تُتِح له الفرصة ليركز، في النهاية أذعن وألقى بالفتاة من فوق بلكونة الطابق الثاني، ستنجو قطعًا حتى لو ارتطمت بالأرض، ربما ستخرج ببعض الرضوض أو الكسور البسيطة، لكنها ستنجو.

طارت الفتاة في الهواء من دون أن تبدي أيَّ اعتراض أو احتجاج ولو بصرخة تلقائية، تلقفتها الأيدي بفدائية.

- الآن اقفز يا رجل.

- تحرك بسرعة.

لم يكن بحاجة إلى أيِّ مساعدة، كان يملك من المهارات ما يلزم لينجو مما هو أصعب من ذلك بكثير. عاد إلى الجانب الذي صعد منه، وقف بقدميه على الحاجز المعدني وقفز باتجاه الماسورة التي استخدمها في الصعود وسط دهشة الحاضرين وترقبهم، ثم انزلق إلى الأسفل بحركة واحدة، حاول أن يستغل الفوضى الجارية ما بين هرجٍ ومرجٍ، والبحثِ عن جرادل ماء وأغطية، وهَلَعِ قاطني العمارة الذين فروا من النار.. لينسحب خلسة، لكن الكثير من العيون تعلقت به بإعجاب، وبدأت الألسنة تهنئه وتوجه الكلام إليه، عندها أدرك أنه لم يعد لديه مفر، سيكون مضطرًّا لأن يلعب دور البطل الذي ظهر في الوقت المناسب كي ينقذ الفتاة الصغيرة من أسوأ ميتة يمكن أن يتعرض لها كائن بشري، ومن بعيد كانت أبواق سيارة الإطفاء تعلو تدريجيًّا. عرف في وقت لاحق أن والدَي الفتاة قد تفحّما تمامًا. سألته لينا أخيرًا بعد أن تمكنت من ابتلاع انبهارها:

- ماذا كنت تفعل في ذلك المكان؟

فكر الرجل قليلًا، ثم قال:

- لا أذكر، أظن بأني كنت أعمل متخفيًّا أو شيئًا من هذا القبيل.

قالت وقد استبدت بها حماسة مفاجئة:

- إنه القدر.

نظر إليها مستفهمًا، أردفت:

- لقد شاء القدر أن توجد في ذلك المكان كي تنقذني من الحريق.

- آه، حسنًا، لا أعلم بشأن ذلك، كانت مصادفة، ضربة حظ إن شئتِ أن تسميها كذلك.

قالت بثقة:

- ليس كذلك، لا يمكن أن تحصل مثل هذه الأمور بعشوائية.

أخذ بعض الوقت ليفكر فيما قالته للتو، لا يمكن أن تحصل هذه الأمور بعشوائية.

ربما كانت محقة، فهو يعلم يقينًا أن وجودهما في هذا المكان لم يكن عشوائيًّا بالمرة.

13

المشهد

أراضٍ زراعية بمساحات شاسعة، مراعٍ على امتداد البصر، وحشائش خضراء تنتشر في كل مكان، قطيع من الأغنام يسرح في مكان قريب، وشاب بجلباب رمادي يجلس وحيدًا، ظلُّ شجرة نخيل ضخمة قد اتكأ على حصيرة قديمة رمادية وأمامه كوب ممتلئ بشاي أسود اللون.

– «عربي»...

رفع الشاب رأسه ونظر إلى القادمين، أحدهما وجه مألوف بالنسبة إليه، أما الرجل الآخر فلم يسبق له أن رآه من قبل، كان نحيفًا بعض الشيء ويرتدي ملابس مدنية ويبدو جليًّا أنه غريب عن المكان، بقي ينظر إليهما في ترقب حتى هتف ابن قريته بصوت عالٍ:

– «عربي»، الأستاذ قادم من العاصمة لرؤيتك.

تفرس الرجل في معالم وجه الرجل الغريب لوهلة قبل أن تتغير قسماته فجأة، وقف مسرعًا وهو يقول:

– أهلًا حضرة الباشا.

قال قريبه مستغربًا:

– أيُّ باشا؟ هذا الأستاذ يسأل عنك، يقول إنه كان يعرف المرحوم عوض.

– الباشا ليس من المباحث؟

قال معاذ راسمًا على وجهه ابتسامة بشوشة:

– لا يا «عربي»، أنا كنت أعرف المرحوم عوض، أنا أسكن في العمارة التي كان يعمل فيها.

قال الرجل مقاطعًا:

– الأستاذ كان مدينًا لعوض بنقود وجاء ليسددها.

ابتسم «عربي» وهو يقول:

– آه، أهلًا بك، لكن عوض لم يذكر قط أنه ينتظر نقودًا من أحد، عوض ربنا فتحها عليه في الآونة الأخيرة، منذ أن حضر إلى البلد ومحفظته لا تخلو من النقود، الله يرحمه،

لم يعِش كثيرًا بعدها ليهنأ بما كسبه، قل لي يا أستاذ، هل عمل البواب يكسب نقودًا كثيرة لهذه الدرجة؟

لمعت عينا معاذ، اشتعلت فكرة في داخل رأسه، لكنها ظلت بلا ملامح واضحة، سأل:

– هل كانت معه نقود كثيرة؟

– ياه، فكَّ رهن أرض والده، واشترى جرارًا جديدًا، وبقي معه المزيد، يدَّعي أنه حصل على مكافأة نهاية خدمة، لكنه لم يعمل سوى منذ بضع سنوات.

قال معاذ:

– لا أعرف فيما إذا كانت مرتبات البوابين قد ارتفعت إلى هذا الحد، هل يمكن أن تدعونا إلى كوب شاي؟

– آه، طبعًا، تفضلا.

قعد ثلاثتهم على البساط المفرود تحت الشجرة، رحب «عربي» بضيفه المجهول وهو يسكب الشاي في أكواب زجاجية صغيرة، كان معاذ يرغب حقًّا بتناول كوب من الشاي الثقيل، ولكنه بالمقابل يرغب أكثر في أن ينتهي من الأمر الذي حضر لأجله، مد يدًا خفية إلى جيب جاكيته حيث ترقد مسجلته الصغيرة وضغط على زر التسجيل، ثم بدأ يبحث عن ضالته بسرعة شديدة.

– سمعتُ يا «عربي» أنك كنت موجودًا مع المرحوم عوض في تلك الليلة.

تجمدت ملامح وجهه لوهلة ثم اكتساها حذر وتوتر. أجاب بحذر:

– هذا صحيح.

الرجل الآخر لاحظ تردد صديقه، قال:

– لا داعي للقلق يا «عربي»، أخبره بالحكاية.

لكن «عربي» بقي على تردده، قال:

– أيُّ حكاية؟ لا توجد أيُّ حكاية في الموضوع.

– لا تخف يا «عربي»، فقط أعِد علينا الحكاية.

ثم التفت باتجاه معاذ وقال بنبرة ساخرة:

– اعذره يا أستاذ، هو لا يزال خائفًا من أن يظهر له الشيطان الذي رآه في القبور.

قال «عربي» بانفعال فجائي:

– هناك شيطان فعلًا، وقد رأيته بعيني التي سيأكلها الدود.

قال معاذ:

- «عربي»، اهدأ لو سمحت، وأخبرني بما حصل في تلك الليلة.

سكت عربي لوهلة، ثم بدا أنه حسم أمره، قال:

- منذ الصغر اعتدنا أنا وعوض أن نسهر في المقابر، نُحضِر معنا إبريق شاي وبعض السجائر ونجلس لنتسامر حتى ساعات الصباح الأولى، ربما تعتقد أن الأمر غريب، لكننا كنا نحب الهدوء الذي يمنحنا إياه الأموات، تعلم ما أعني، تستطيع أن تشعر بالونس وتنعم بالهدوء في الوقت نفسه، تلك الليلة كانت هادئة مثلها مثل مثيلاتها، الجو صافٍ والقمر بدر، وكنا جاهزين بـ...

توقف عن الكلام فجأة، ثم سأل مجددًا:

- أنت متأكد أنك لست من المباحث؟

قال الرجل:

- يا «عربي»، قلت لك.. الأستاذ كان يسكن في العمارة ويعرف المرحوم، لا تخف، الرجل جاء ليعيد للمرحوم نقوده، تكلم براحتك.

لكنه لم ينتظر أن يتكلم «عربي»، التفت إلى معاذ وقال:

- «عربي» يقصد أن يقول إنهما حضَّرا نفسيهما لتناول الحشيش، المقابر مكان خالٍ وبعيد عن الناس.

هزَّ معاذ رأسه متفهمًا، ثم قال:

- أكمل يا «عربي»، ما الذي حصل في تلك الليلة؟

قال «عربي»:

- كنا في منتصف السهرة، أنهينا التعميرة الأولى وبدأنا في الثانية، وأجهزنا معها على إبريق شاي كامل، الدخان والرائحة أصاباني بالدوار، ومثانتي كانت ممتلئة عن آخرها، قلت لنفسي: «سأقوم لأسير بعيدًا أتنفس القليل من الهواء النقي وأقضي حاجة ثم أعود»، أخبرت عوض بأني سأذهب لأبحث عن أقرب شجرة.. لكنه كان سارحًا في ملكوت آخر، تركته وذهبت لكنني لم أَغِب عنه سوى دقائق معدودة، وحينما عدت وجدته مرميًّا على الأرض بالقرب من النار، في البداية ظننته فاقدًا وعيه، لكن معالم وجهه دبت في قلبي الرعب.

سأله معاذ بترقب:

- لماذا؟

- لأنه بدا كمَن رأى مشهدًا أخافه إلى حد الموت.

- إذن تعتقد أنه رأى شيئًا أخافه إلى حد الموت؟

أومأ عربي موافقًا، ثم قال هامسًا:

- لقد رأى الشيطان.

قال معاذ بعدم اقتناع:

- «عربي»، كيف يمكن أن تجزم أنه رأى شيطانًا؟

ابتلع ريقه، ثم قال:

- لأنني رأيت الشيطان أنا أيضًا.

تدخل الرجل ليقول:

- هل تصدق هذه التخاريف يا أستاذ؟

قال «عربي» بانفعال:

- ليست تخاريف، لقد رأيت الشيطان بأم عيني.

قال الرجل متهكمًا:

- تريد أن تقنع الأستاذ بأن المرحوم عوض رأى الشيطان المزعوم فقتله الشيطان، وأنت رأيته ولم يحصل لك شيء، كيف تفسر هذا؟

قال عربي:

- لأنني تمكنت من الهرب يا بهيم، أنا أسرع شاب في القرية كلها، هل نسيت؟

- لا، لم أنسَ يا فطين، لكنك لن تكون أسرع من الشيطان.

ثم توجه كلامه إلى معاذ المستغرق بأفكاره وقال:

- إنها النداهة يا أستاذ، هي التي أخذت روح المرحوم عوض، النداهة تعرف كم كان المرحوم يعشق الجنس الآخر، استغلت الفرصة حينما وجدته جالسًا وحده وندهت باسمه.

قال «عربي» بإصرار:

- ما رأيته لا يشبه أيَّ نداهة، لقد كان شيطانًا ذكرًا، وكان بعيدًا كل البعد عن الجمال، أنا متأكد من ذلك.

قال معاذ مستدركًا الموقف قبل أن يفلت زمامه:

- «عربي»، أكمل ما حصل لو سمحت، كيف رأيت ذلك الشيطان؟

- لقد شعرت به في آخر لحظة، الله كتب لي عمرًا جديدًا.

سكت قليلًا، كان يواجه صعوبة في استعادة المشهد في ذهنه، تابع:

- حين وجدت عوضًا طريحًا على الأرض ظننت في البداية أنه مسطول، لكن حينما اقتربت منه ونظرت إلى وجهه، أدركت أن مصيبة قد حلت، حاولت يائسًا أن أسعفه.. لكن الأوان كان قد فات، ثم شعرت بحركة من خلفي، استدرت بسرعة ولمحته واقفًا هناك بالقرب من النار، بعدها لم أُضيّعْ ثانية واحدة، أطلقت ساقيَّ للريح وطرت مبتعدًا عن المكان بأسره قبل أن تحل عليَّ اللعنة التي حلت على عوض.

أخذ نفسًا عميقًا كما لو أنه نجا للتو، ثم قال:

- لقد كُتِب لي عمر جديد.

قال معاذ:

- «عربي»، ما الذي رأيته بالضبط.

- الظاهر أن فهمك ثقيل يا أستاذ، لقد قلت لك إنه كان شيطانًا.

احتج الرجل مجددًا:

- قلت لك النداهة، إنها النداهة، أنت محظوظ أنك هربت قبل أن تنادي على اسمك.

تجاهل معاذ احتجاج الرجل وقال لــ «عربي»:

- هذا الشيطان الذي رأيتَه، كيف كان شكله؟

قال «عربي»:

- لا يوجد الكثير لأصفه، فقد وقفت أمامه للحظة فقط، كان شبيهًا برجل إنسيّ.. لكنه أسود بالكامل، وملامحه غير ظاهرة، ويمتلك عينين حمراوين.

ازدرد معاذ لعابه، قال مكررًا:

- كيان أسود بعينين حمراوين.

- بالضبط يا أستاذ.

تأمله معاذ مليًّا، كان يحاول أن يبحث عن أيِّ إشارة للكذب، لكن الرجل بدا صادقًا.

قال:

- «عربي»، يحتمل أنك كنت واقعًا تحت تأثير المخدر ولا تعي ما رأيته بالضبط.

لكن «عربي» هزَّ رأسه بنفي قاطع وقال:

– لقد كنت واعيًا جدًّا، وأعرف ما الذي رأيته، لقد كان شيطانًا.

14

لمعت فكرة في رأسه فجأة في خضم السكون الذي رافق الدقائق الأخيرة، فسأل:

- ألا تشعرين بأن هذا المكان غريب جدًّا؟

نظرت إليه باستنكار، وقد شعرت لوهلة بأنه يستهزئ بها.

- هل أنت جاد؟ بعد كل هذه الأهوال التي مررنا بها؟

قال موضحًا:

- لا، لست أقصد ما مررنا به، لكنني أقصد أمورًا أخرى، أشياء تتعدى الجدران السوداء والقيود والألم والشياطين التي تزعق وهذه الفتحة الغريبة بالسقف التي تصيب المرء بالجنون، أشياء أخرى بسيطة ولكنها تعني الكثير.

قالت وهي تضع يدها على رأسها:

- أنا آسفة حقًّا، لا أظن بأنني قادرة على أن أفهمك.

قال بلهفة غريبة لا تتناسب مع الموقف:

- سأوضح لك الأمر، في أيِّ شهر نحن الآن؟

قالت باستغراب:

- أيُّ شهر؟

- نعم، هل تذكرين؟

- أظن.. أنه...

قال مستدركًا:

- نحن في شهر أغسطس، أليس كذلك؟

سكتت قليلًا، ثم قالت:

- بلى، أشعر بأنه كذلك.

- بالنسبة إليَّ.. أنا متأكد من أننا كنا في أغسطس قبل أن أصل إلى هنا، ومتأكد أكثر من أن الجو حار بدرجة لا تحتمل، وقد استيقظنا لنجد نفسينا في هذا المكان منذ ساعات قليلة فقط، أستبعد جدًّا بأننا غبنا عن الوعي لمدة طويلة بحيث أصبحنا في الشتاء مثلًا.

- بالتأكيد لا، نحن ما زلنا في الشهر نفسه.

قال بنبرة انفعالية:

- إذن، نحن متفقان على أننا كنا في شهر يتميز بحرارته الشديدة، والآن، كلانا يجلس بداخل ما يشبه قبوًا محكم الإغلاق ومن دون أيِّ مراوح أو مكيفات أو حتى نوافذ يطل منها الهواء، ومع ذلك لا أشعر بالحر، على العكس، أشعر بشيء من البرودة، ماذا عنكِ؟ هل تشعرين بالحر؟

بدا عليها انتباه شديد، قالت مؤكدة:

- أنتَ محق، أنا لا أشعر بالحر على الإطلاق.

قال متابعًا فكرته:

- ماذا عن الجوع، أو العطش، أو حتى الحاجة للذهاب إلى دورة المياه؟ بتقديري أننا أمضينا عددًا من الساعات في هذا المكان، لِمَ لا نشعر بأيِّ رغبة في ممارسة أيٍّ من الحاجات الإنسانية الاعتيادية؟

- لا أعلم.

- هذا لا يبدو لي أمرًا معقولًا، أليس كذلك؟

عادت الأفكار التي تنتمي إلى الماورائيات لتدور في فلك دماغها، قالت:

- إذن اقتنعتَ الآن بأن ما يحصل معنا هذا ينتمي إلى الخوارق.

لكن الرجل كان لديه رأي آخر، قال:

- لا، الأمر ليس كذلك، مع أنني كنت على وشك أن أنقض أفكاري وأبدأ في التفكير بهذا الاتجاه لكن الحقيقة غير ذلك، نحن نمر بتجربة مختلفة تمامًا، تجربة بالمعنى الحرفي للكلمة، لقد فهمت ما الذي يحدث هنا، فهمت، آه.

نظرت إليه لينا مستفهمة، أعلن:

- نحن فئران تجارب.

ثم نظر إلى الفتحة التي في الأعلى حيث كان يعتقد بأنهم يستخدمونها لمراقبتهما، وصاح:

- فئران تجارب، هل هذا هو الأمر؟

ثم أخذ يضرب الأرض بقبضته غاضبًا وهو يقول:

- كيف لم أحزر من البداية؟

قالت لينا والقلق يعتصرها:

- لم أفهم، ما الذي تعنيه؟

توقف عن توجيه لكماته إلى الأرض، وأطلق زفيرًا غاضبًا.

- أعني أنهم يجربون علينا عقارًا من نوع ما، أبحاث سرية في الغالب، ربما لأغراض طبية أو عسكرية، وهم حاليًّا يراقبون الآثار الجانبية لهذا العقار الغريب.

غرقت لينا في أفكارها لبعض الوقت، ثم قالت:

- حسنًا، لا بأس، هل هذا يعني بأننا في نهاية الأمر سنذهب إلى حال سبيلنا؟ أعني بعد أن ينتهوا من تجاربهم هذه.. أم أنهم سيتركوننا لنموت؟

لاحت على ملامحه ابتسامة ساخرة، ثم قال وهو يتلفت حوله:

- سيتركوننا لنموت طبعًا.

تنهدت الفتاة، ثم قالت:

- أرجو أن يتم ذلك بأقل قدر من الألم، أنا لم أعد قادرة على الاحتمال أكثر، حتى إنني لم أعد قادرة على أن أذرف الدموع، ما هذا الشيء الذي يجعل دموعي عصية على الخروج؟

بدا الرجل متحمسًا بقدر أكبر، وقف على قدميه وأخذ يلوح بيديه وهو يقول:

- كل ما يحدث من حولنا ليس حقيقيًّا بالمرة.

وضعت لينا يدها على رأسها وبدت خائبة الأمل، قالت:

- ليس حقيقيًّا؟

- ليس حقيقيًّا.

- لم يسبق لي أن مررت بشيء حقيقي أكثر.

لكن الرجل بدا واثقًا هذه المرة، قال:

- صدقيني، ليس حقيقيًّا، لكنه يبدو كذلك، مثلما أخبرتك سابقًا، إنه أمر يجري بداخل عقولنا فقط، إنهم يعبثون بعقولنا بالمعنى الحرفي للكلمة، فكري معي، أنتِ ترين ظلًّا أسود اللون وله عينان حمراوان، وقد صادف أنَّ ما تحمليه في مخيلتك من ذكرى عن الحادث الذي تعرض له والداك هو أنك رأيتِ شيطانًا أسود اللون وعيناه حمراوان، وفي الوقت الذي كنا نفكر فيه في الطريقة التي خُدِّرنا بها واقترحتِ بأننا تعرضنا إلى نوع من الغازات.. أصبحنا نرى دخانًا يخرج من الجدار بين الحين والآخر ويتسبب في غيابنا عن الوعي، ثم هنالك فوبيا الاحتراق التي تعانينها، ويصادف أنني

أتعرض إلى الاحتراق، ألا ترين النمط الذي يحدث هنا؟ كل المخاوف التي تحملها عقولنا أصبحنا نراها في هذا المكان ونشعر بها بقوة، عقولنا هي التي أنتجت هذا كله.

قالت وهي تتنهد:

- أيًّا كان الأمر، كل ما أتمناه الآن هو أن يكون الله رحيمًا بي عندما تحين ساعتي.

حدق إليها بملامح ساخرة، وقال بنبرة لم تختلف عن ملامحه كثيرًا:

- الله؟

- ماذا تقصد؟

- كل الذي حدث والذي ما زال يحدث في هذا العالم، ما زلتِ تؤمنين بأن هناك إلهًا؟

- أرجوك، لا تتكلم بهذه الطريقة، نحن الآن أحوج ما نكون إلى رحمة الله.

- إذا كان إلهك رحيمًا حقًّا، لماذا خلق الشر إذن؟ ولم يكتفِ بمراقبة ما يحل على العالم الذي خلقه من دمار دون أن يُحرِّك ساكنًا؟

قالت بغضب:

- من الخطأ أن تطرح مثل هذا السؤال، لأن الله يعلم ما لا نعلم، ثم إن كل إنسان سيحاسب على أفعاله.

- إذا كان إلهكِ موجودًا حقًّا.. فأظن أنني أستحق مكانًا في جحيمه المزعوم، لكن هذا لن يحصل أبدًا.

- يا إلهي، ليست لديك فكرة كم أنت مخطئ، لا يمكن أن يكون وجودنا في الحياة مجرد عبث، حياتنا كلها مجرد مرحلة، لا يمكن أن تكون هذه هي النهاية.

أومأ برأسه نافيًا، ثم قال:

- للأسف يا صغيرتي، الآلهة أو الكيانات العظمى التي تتحكم بكل شيء يحدث من حولنا، هي مجرد فكرة ابتدعها البشر من أجل أن يصنعوا لوجودهم غاية، ولا يوجد أيُّ دليل على وجود إله، الجنة والنار اللتان تدَّعين وجودهما هما محض خرافات، لا يوجد بعد الموت سوى العدم.

توقف عن الكلام فجأة، بقي فمه مفتوحًا لوهلة في حين أن أذنيه كانتا في غاية الانتباه. نظر إلى الجدار المقابل، لم يرَ شيئًا في البداية، لكن حينما دقق النظر، عرف بأن الخطر قادم، قال باستياء:

- لا، ليس مجددًا.

انتاب الفتاة فزع عارم، سألت:

- ماذا يحدث؟

- إنهم يعيدون الكَرَّة.

- ماذا تقصد؟

- سوف يخدِّروننا مجددًا.

تنبهت أخيرًا إلى السواد الكثيف الذي خرج من شقوق غير مرئية في الجدران والسقف، قالت برجاء:

- لا يا ربي، ليس مجددًا.

الدخان أصبح أشد كثافة، وأخذ يقترب منهما رويدًا رويدًا مثل سحابة تبحث عن أرض جرداء لتمطر عليها، قريبًا سيملأ كامل أرجاء الغرفة ويبتلعهما في جوفه. قالت لينا وهي توشك على البكاء:

- لن أحتمل ذلك الألم مجددًا، هذه المرة سأموت فعلًا.

قال الرجل متظاهرًا بثقة زائفة:

- لن تموتي، سنتجاوز الأمر مثلما فعلنا في المرة الأولى.

- ماذا أفعل؟

- احبسي أنفاسك جيدًا، لا تسمحي للدخان بأن يدخل أنفك قدر استطاعتك.

أومأت موافقة، واستعدت، انتابها ثبات مفاجئ مصدره اليأس أكثر منه الأمل. قال:

- الآن.

أخذت لينا نفَسًا عميقًا ثم كتمت أنفاسها، وفعل هو المثل، استنشق آخر ما تبقى من ذرات الأكسجين التي لا تزال حرة ثم توقف عن التنفس. كانت الثواني تمر صعبة ومؤلمة، لكن الرجل كان يثق بقدرته على كتم أنفاسه لوقت طويل، يعلم بأنه يتقن هذه المهارة من خلال تجاربه السابقة، أما الفتاة فلم تكن كذلك، لم تصمد سوى دقيقة فقط قبل أن تبدأ باللهاث، بقي الرجل محافظًا على هدوئه وتركيزه. سمعها تقول:

- لو أن الله غير موجود مثلما تظن، فإلى من تلجأ في مثل هذا الموقف؟

نظر إليها بعينين متسائلتين، قالت مجددًا:

- إلى من تلجأ كي يُخلِّصك؟ إلى من تلجأ؟

ثم توقفت الكلمات في حلقها وسقطت على الأرض مثل جماد. لم يسمح الرجل للقلق أو التوتر بأن ينفذا إليه، الهدوء التنفسي كان كلمة السر، عزم على أن يمضي في خطته

مهما كلفه الأمر، انتظر عشر ثوانٍ إضافية، ثم تظاهر بأنه يسقط على الأرض وقد أغمض عينيه.

دقيقة أخرى مضت، وكان على يقين أن بإمكانه الاستمرار دقيقة إضافية، لا يعرف ما إذا كانت هذه الحيلة ستفيده في شيء ولكنه لا يملك خيارًا آخر، لا يملك أيَّ وسيلة أخرى لينقذ نفسه، لا في هذه اللحظة ولا بعد أن يموت وتهيم روحه في الفضاء إلى ما لا نهاية، لن يحاسبه أحد ولن يُحاسِب أحدًا، لا إله ولا ملائكة ولا شياطين ولا جنة ولا نار. الوقت يمر، وأنفاسه التي تنفد سريعًا على وشك أن تخذله. شعوره بالاختناق يتنامى رويدًا رويدًا. وفي اللحظة التي شعر بأنه سيفقد السيطرة، بدأ الدخان يتلاشى تدريجيًّا حتى اختفى من الغرفة.

كان من المتعذر عليه أن يفهم مثل هذه التقنية التي تسمح للمخدر بأن ينفذ إلى الغرفة ومن ثم يخرج منها في غضون ثوانٍ قليلة جدًّا، ربما لهذا السبب كانت الجدران مطلية باللون الأسود القاتم، كي تنجح في إخفاء ما لا يرغبون في إظهاره للعيان، في حين نجح هو في أن يُبقِي أنفاسه حبيسة جوفه حتى آخر لحظة ممكنة، بقي محافظًا على هدوئه بحرفية عالية، وحتى حينما فتح فمه ليتنفس، قام بالعملية بتلقائية مدروسة ومن دون أن يصدر أيَّ صوت أو تبدر عنه أيُّ حركة.

بالنسبة إلى أيٍّ مَن كان يراقبه من الفتحة التي في السقف أو مِن مكان غير مرئي في الحائط، فقد كان مخدرًا تمامًا.

دقيقة أخرى مرت من دون أن يحدث أيُّ شيء، لكنه كان يتنفس على الأقل.

15

كان الرجل مستلقيًا بلا حراك، رأسه مائل قليلًا، وجزء من جبهته اليمنى وحاجبه يلامس الأرض، ساقاه مستقيمتان ويداه ممدودتان إلى الأمام على شكل قوس، كان أشبه بشخص قفز من مكان مرتفع وسقط على وجهه.

كان قادرًا على رؤية الفتاة بطرف عينه اليسرى، لم يكن متأكدًا بعد، لكنها بدت له ميتة. سمع أصواتًا قادمة من خلف الجدار، ثم صوت مفتاح يدور في ثقب، ثم صوت باب يفتح، كان الصوت قادمًا من خلفه؛ لذا لم يتمكن من رؤية ما الذي كان يحصل بالتحديد، لكنه عرف أن تخمينه كان موفقًا، يوجد باب سِرِّي في الجدار. هذا هو المنطق بعينه، كل شيء له تفسير مقنع، تمنى لو كانت الفتاة مستيقظة لترى ذلك.

- كلاهما لا حول له ولا قوة.

ثم سمع ضحكة خشنة.

- لا أعلم لماذا لا نقتلهما من البداية وننتهي من الأمر.

صوت آخر مختلف، لكنه أكثر جدية. كانا رجلين، كلاهما يتكلم العربية، ولكنه لم يميز صوتيهما، تصور بأنهما مأجوران لحساب شخص آخر أكثر أهمية. شعر بقدم مدببة تلكزه من خاصرته لكزًا مؤلمًا، لكنه لم يكن شيئًا يذكر مقارنة بما مر به لغاية الآن. سمع صوتًا يقول:

- نائم مثل بغل.

فتح نصف عين بحذر، لمح قدمًا تغطيها جزمة عسكرية سوداء تسير باتجاه الفتاة، ثم لكزها بالطريقة نفسها، ثم سمع شهقة فيها اندهاش.

- يوجد أمر غريب.

لمح زوجًا آخر من الأقدام.

- ماذا هناك؟

- الفتاة لا تتنفس.

- معقول؟

لكزها الرجل الآخر بقوة أكبر.

- يا أحمق، لِمَ ترفسها؟

- لأتأكد من أنها ميتة فعلًا ولا تتظاهر بذلك.

- حتى لو لم تكن ميتة، هل تظن بأنها ستفيق بهذه السرعة؟

كانا رَجُلَين متماثلين في الحجم والطول تقريبًا بلباس مرتزقة أسود وأقنعة من اللون نفسه، وكلاهما يحمل سلاحًا أوتوماتيكيًّا صغيرًا معلقًا على كتفه، بالرغم من سِنِّه التي تجاوزت الخمسين، فإنه كان يؤمن بقدرته على التغلب عليهما، فقط عليه أن ينتظر إلى أن تحين الفرصة. جثا أحدهما بجانب الفتاة، ثم وضع ظهر كفه عند أنفها، وقاس نبضها، بعد ذلك أعلن:

- هذه الفتاة ميتة حقًّا.

ثم أخرج من جيبه سلسلة بها عدد من مفاتيح، حرر أحدها وناوله للرجل الآخر وهو يقول:

- اذهب وفك قيود الرجل.

- ماذا عن الفتاة؟

- سنأخذ الجثة معنا ثم نرى ماذا نفعل بشأنها لاحقًا.

تحرك الرجل الثاني وبيده المفتاح، ثم جثا عند قدمي الأسير الملقى على وجهه، دسَّ المفتاح الصغير في قفل السلسلة وحله، ثم استقام واقفًا.

- ماذا الآن.

حمل الرجل الأول جثة الفتاة على كتفه، ثم التفت إلى الرجل الآخر وقال:

- ارفعه.

- وحدي؟

- وحدك طبعًا، ما المشكلة؟ إنه مجرد رجل عجوز.

- ليس عجوزًا جدًّا، كما أن أكتافه عريضة ووزنه يبدو ثقيلًا.

- هذه ليست مشكلتي، لا تكن متخاذلًا، هيا ارفعه.

أذعن في نهاية الأمر، أمسك بالأسير من ياقة قميصه ثم أحاط جذعه بكلتا يديه وأوقفه على قدميه المرتخيتين تمهيدًا لرفعه إلى الأعلى، في حين سار الرجل الذي يحمل الفتاة باتجاه الباب المفتوح في الجدار وقد أعطاهما ظهره.

عند هذه اللحظة، أدرك بأن الفرصة قد صارت مواتية، دفع الرجل بإحدى يديه وخطف المسدس المعلق عند خاصرته باليد الأخرى، كان يملك الكثير من المهارات المكتسبة، ومنها استخدام سلاح ناري بسرعة ودقة. أطلق رصاصتين على صدر الملثم الأول الذي لم يكن قد حظي بأيِّ فرصة ليستوعب ما حدث في حين تجمدت إحدى يديه

على سلاحه الأوتوماتيكي، التفت الرجل الآخر إلى الخلف بعد أن سمع صوت الرصاص، لكن جثة الفتاة التي تعلو كتفه أعاقته عن التصرف بسرعة، تلقى الرصاصة في منتصف جبهته، سقط عند الباب وسقطت الفتاة بجانبه.

تنفس الرجل الصعداء، ثم جثا بالقرب من الفتاة وتأمل وجهها الذي غابت عنه الروح، لكنه لم يكن يملك الوقت ليرثي لها. تحرك بسرعة وبخفة، فتش جيوب الرجلين ولكنه لم يعثر على أيِّ شيء، لا هواتف ولا بطاقات إثبات شخصية، استبدل بالمسدس الذي معه سلاحًا آخر من نوع أوتوماتيكي وتأكد من وجود طلقات كافية، ما زال لا يعلم عدد الأشخاص الذين ينبغي أن يتعامل معهم، وربما تلقوا تحذيرًا الآن، وقف عند الباب وأسند ظهره إلى الجدار الأسود وانتظر مترقبًا، لكنه لم يسمع أيَّ خطوات قادمة من خلف الجدار.

أطل برأسه من الباب بحذر، رأى ممرًّا صغيرًا وفارغًا ينتهي بردهة واسعة ومضيئة، نظر إلى الأعلى بحثًا عن أيِّ كاميرات.. لكنه لم يجد أيًّا منها، سار في الممر بحذر والسلاح مصوب إلى الأمام تحسبًا لأيِّ خطر قادم.

الردهة كانت مساحة مربعة وواسعة ولم يكن يوجد فيها سوى القليل من الأثاث، رأى ثلاجة صغيرة في إحدى الزوايا، وفي الاتجاه المقابل كان هنالك تلفاز فوق منضدة سفرة، وأريكتان قديمتان، ولم يكن هنالك أيُّ شخص، حينما اقترب من الباب سمع صوت محرك سيارة، فتح الباب بحذر ونظر إلى الخارج، واجهته مساحة شاسعة من الرمال والخلاء.

أمام الباب وقفت سيارة فان سوداء اللون، وبابها الخلفي كان مفتوحًا استعدادًا لاستقبال المخطوفين الغائبين عن الوعي، أعد سلاحه وسار بخطوات هادئة وحذرة، لمح ذراعًا غزيرة الشعر تمتد من النافذة المفتوحة من جهة السائق، أحنى ظهره ومشى بمحاذاة المركبة بحذر شديد، صوت مذيعة الراديو كان يصل إلى مسامعه ويعلو تدريجيًّا مع كل خطوة. ضحكة ناعمة، أنغام أغنية عاطفية، وصل أخيرًا. غيَّر من وضعيته الكتومة، وأشهر سلاحه بوجه السائق وهو يصيح:

- لا تتحرك.

كان السائق وحده في السيارة، مقنعٌ مثل البقية.. لكنه كان أكبر حجمًا، لم يظهر منه سوى عينين كبيرتين وشفتين غليظتين، ويلبس تي شيرت أسود يكشف عن ذراعين ضخمتين.. رفعهما إلى الأعلى كإشارة إلى الاستسلام.

- انزل من السيارة.

أطاع المقنع، فتح الباب، ثم نزل من السيارة وذراعاه إلى الأعلى.

- مَن رئيسك؟

- لا أعلم.

- لا تتحاذق معي، أنا من يحمل السلاح هنا، زميلاك في الداخل صارا في عداد الأموات.

بقي الرجل ثابتًا، وذراعاه في الأعلى.

- سأسألك مجددًا، لا تضطرني إلى إرسالك لأيّ كان المكان الذي ذهبا إليه، مَن الذي وظَّفك للقيام بهذا العمل؟

- لا أعلم، لا أعرف شيئًا.

رفع الرجل السلاح إلى مستوى كتفه وصوبه باتجاه رأس الرجل.

- آخر فرصة، تأكد بأني لن أتردد للحظة.

لكن الضخم لم يبدُ خائفًا أو مهزوزًا، قال:

- لا أعرف شيئًا، هل تظن أنني سأقامر بحياتي كي أخفي هويته؟ لو كنت أعرف اسمه لأخبرتك من دون أن تحتاج إلى أن تشهر بوجهي السلاح حتى!

تمعن الرجل في العينين اللتين ظهرتا من خلف القناع الأسود واللتين كانتا تخفيان أكثر مما تظهران، ثم قال:

- حسنًا، سـأسألك سؤالًا آخر، من أنا؟

- عفوًا؟

- مَن أنا؟ هل تعرف مَن أنا؟

ضحك الضخم على نحو غريب وغير متوقع.

- هل نسيت هويتك؟ البلد كلها تعرف من أنت، إلا أنت لا تعرف.

شعر بالغيظ لكنه نجح في كتمانه، قال بهدوء:

- لا تحاول أن تستفزني لأنك من سيخسر في النهاية.

أنزل الملثم ذراعيه إلى الأسفل قليلًا، وبسط كفيه ملتمسًا الهدوء والتريث من الرجل الذي يشهر السلاح بوجهه، قال:

- مهلًا، لم أقصد إثارة غضبك، لكن سؤالك فاجأني، لم يسبق لي أن سمعت عن شخص يطلب من شخص آخر أن يخبره من هو.

- ما زلتُ أنتظر الإجابة، وصدقني، لن أنتظر قليلًا.

وضع الملثم يده اليمنى على ذقنه الذي تختفي خلف القناع.

– ما الذي يضمن لي أنني سأظل على قيد الحياة؟

كان الرجل مستعدًّا لمثل هذا السؤال، قال:

– أنا بحاجة إلى سائق، سوف تأخذني بعيدًا عن هذه المنطقة النائية إلى حيث توجد حضارة، وبعدها سأتركك وشأنك، لن أستطيع قتلك أمام الناس.

حك الرجل ذقنه مجددًا.

– كلام معقول، لكن من يضمن لك أنني سأكون صادقًا معك وأخبرك باسمك الحقيقي؟ ماذا لو أخبرتك أيَّ اسم، كيف ستعرف أنه أنت وليس شخصًا آخر؟

قال الرجل وهو ينظر في عيني الملثم اللتين لم يفارقهما الخبث ولو للحظة واحدة:

– سأشعر بذلك، ثق بي، لديَّ حدس جيد جدًّا.

عاد الملثم ليحك ذقنه من جديد وهو يهمهم، في حين كانت يده اليسرى تهبط إلى الأسفل تدريجيًّا حتى اختفى جزء منها خلف ظهره.

– ما رأيك في أن نعقد صفقة إذن؟

– كُلِّي آذان مصغية.

– سأوصلك أولًا إلى أيِّ مكان ترغب في الذهاب إليه، وبعدها سأخبرك من أنت مقابل أن تدعني أذهب، سأشعر براحة أكبر لو بقي لي شيء إضافي لأساوم عليه.

– اقتراح جيد، لكن لديَّ اقتراح آخر.

ظهر الارتياب على العينين الخبيثتين للمقنع، لكنه لم يجد الوقت الكافي ليُقيِّم الموقف أو يبدي أيَّ حركة، فقد عاجله بدفقة رصاص تسببت له بارتعاشة قبل أن يتهاوى على الأرض والدماء تنزف من ثقوب عديدة تشكلت على جسده، اقترب منه وركل المسدس الذي كان يقبض عليه خلف ظهره بعيدًا وهو يقول:

– تعتقد بأن بإمكانك خداعي.. هاه؟

راقبه للحظة في حين كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، ثم فتش جيوبه مثلما فعل مع الرجلين الآخرين، لكنه لم يجد أيَّ شيء كذلك، أطلق زفرة تجمع بين الارتياح وخيبة الأمل. كان يشعر بأنه قد تحرر أخيرًا، لكن الغموض لا يزال يكتنف واقعه المجهول مثل شرنقة. قعد خلف المقود، سمع المذيعة تقول: معنا اتصال آخر، ألو...

لا يحملون معهم أيَّ هواتف أو أجهزة لاسلكية، تساءل عن الطريقة التي كانوا يتواصلون بها مع بعضهم بعضًا، لم يكن هنالك سوى الحذر، لا أسماء ولا وجوه ولا آثار، كان محتجزًا في قلب العدم، صحراء مترامية الأطراف امتدت أمامه.

عليه الآن أن يصل إلى بر الأمان وبعدها سيتصرف، سيحاول استرجاع ذاكرته وسيبحث بين أوراقه جيدًا، مَن فعل هذا به وبتلك الفتاة المسكينة هو شخص يعرفه تمام المعرفة، كان متأكدًا من ذلك. لينا.. هل هناك صلة بينهما حقًّا؟

ضحكت المذيعة مجددًا وهي تقول:

- شكرًا، هذا من ذوقك.

تفقد مؤشر الوقود ووجد الخزان ممتلئًا، شعر بالارتياح، لم تكن لديه فكرة عن المسافة التي عليه أن يقطعها، سار اعتمادًا على آثار العجلات التي تركتها السيارة في أثناء حضورها إلى هذا المكان.

- نترككم مستمعينا مع أغنية...

انتهت الصحراء بعد ساعتين من السير المتواصل، ووصل إلى شارع مُعبَّد وخالٍ من أيِّ شيء عدا الأسفلت الأسود والأراضي الجرداء، مضى في الطريق نصف ساعة إضافية حتى صادف أول سيارة، أشار إلى سائقها ليتوقف وسأله عن المكان الذي هو فيه وعن الإرشادات للوصول إلى العاصمة. قال المذيع بصوته الجذاب والواثق:

- فخامة الرئيس يجتمع مع نظيره المالديفي لمناقشة سبل التعاون الاقتصادي...

عندما لاحت أمامه أولى أنوار الأماكن السكنية، بدأ يسترجع ذاكرته تدريجيًّا.

عقله الباطن تسلَّم زمام القيادة، وارتسم العنوان في مخيلته.

- والآن إلى أخبار الرياضة...

بدأ الازدحام يزداد، وتناثرت الأبنية السكنية على كلا الجانبين، الضوضاء والفوضى أعادته إلى الحياة مجددًا، غمرته الراحة بأجنحتها وأزالت كل أثر للقلق، أخيرًا نظرت إليه الطبيعة بعين الرأفة وكتبت له النجاة.

تخطى الشوارع المزدحمة ودلف إلى حي راقٍ وهادئ، سارت السيارة في شوارع نظيفة ومنظمة وتكثر فيها أشجار الزينة، تحولت المباني السكنية إلى فلل وقصور بتصاميم أنيقة وتكشف عن رقي وذوق عالٍ، ومسكنه لم يكن يقِل عنها فخامة.

وقف أمام بوابة الفيلا التي يعلم يقينًا بأنه يسكن فيها، أطلق نفير بوقه مرتين لكن أحدًا لم يفتح البوابة، وجد نفسه يطلق اللعنات جزافًا من دون وعي وهو يفتح باب السيارة ويترجل منها ثم يخطو باتجاه البوابة ويفتحها بنفسه، عاد إلى السيارة وقادها إلى الداخل وقد قرر أن يبقيها بعيدة عن الأعين، يمكن للوحة التسجيل أن تكون مفيدة للتعرف إلى هوية مختطِفيه.

أوقف السيارة أمام المبنى وقرع البوق مجددًا، لكن لم يظهر أحد. مدخل الفيلا كان نظيفًا ومرتبًا.. ولكنها كانت خاوية على عروشها، أطفأ المحرك ونزل من السيارة ولسانه يلهج بشتى أنواع الشتائم التي طالت الخدم والحارس والسائق وكل مهنة أسعفته بها ذاكرته المتعبة، مد يده باتجاه المقبض وحركه لينفتح الباب على مصراعيه، وحين خطا إلى داخل البهو الأنيق الذي كان يعرف معالمه جيدًا.. انتابه شعور بأنه عاد إلى وطنه بعد غربة طويلة تنضح بالمرارة، لكنه مجددًا لم يواجه سوى أثاث فخم وتُحَف وزخارف وجدران ألوانها فاتحة من دون بشر، لكنها تظل أفضل حالًا بكثير من تلك الجدران السوداء بأيِّ حال.

قادته قدماه نحو غرفة المكتب، دخل ليجد أول بشري يصادفه في الأرجاء. الرجل كان مستلقيًا على الأريكة الوثيرة التي كانت بالكاد تتسع لاحتواء جسده الضخم، وجهه في الاتجاه الآخر وصوت شخيره يصدح عاليًا في أرجاء الغرفة، اقترب منه بخطوات حذرة في البداية، ثم سرعان ما تذكره. تنهد بارتياح، سار نحو الضخم الغارق في النوم ليحاول إيقاظه.

- ياسين، ياسين.

تنحنح الضخم، صوَّب عينًا كسولًا باتجاه الرجل الذي قطع عليه منامه، لكنه حينما تمكن من تمييزه تغيرت ملامحه من الكسل والبلادة إلى الانتباه، قام من رقوده سريعًا وهو يقول بصوت أقرب إلى الصراخ:

- سيدي، لقد عدت.

تراجع الرجل إلى الخلف قليلًا، ثم قال:

- اسمك ياسين، أليس كذلك؟

- طبعًا، هل نسيتني يا سيدي؟ أنا ساعدك الأيمن منذ أكثر من خمس عشرة سنة، منذ أن كنتَ مجندًا في القوات الخاصة.

- إذن أنت تعرفني جيدًا.

بدا الاندهاش على ملامح ياسين، قال:

- سيدي، هل أنت بخير؟ أين كنت مختفيًا منذ الصباح؟

- سأقول لك كل شيء حالًا، المهم أخبرني، ما اسمي؟

نظر إليه الضخم ببلاهة، قال:

- سيدي، أنا لا أفهم.

صك الرجل على أسنانه، ثم قال بلهجة بدت هادئة ولكن صبرها كان ينفد:

– يا بني آدم، لقد تعرضت لضربة في رأسي وفقدت ذاكرتي جزئيًّا، الآن، قل لي، من أنا؟

– أنت أشرف باشا.

– أشرف؟ اسمي أشرف؟

– الباشا أشرف وهيب، المليونير ورجل الأعمال المعروف، والعقيد السابق في القوات الخاصة، والنائب في البرلمان لدورتين متتاليتين، والاسم الأبرز لتولي شؤون وزارة الداخلية في المرحلة القادمة.

الآن بدأ يفهم! لم يكن مخطئًا في حدسه، إذن.. رجل بمكانته سيكون لديه الكثير من الأعداء الذين يسعون لإيذائه، ابتسم لنفسه في مكر، لقد كانوا قريبين جدًّا هذه المرة حقًّا، لكن هيهات. سأله ياسين مرة أخرى:

– أين كنت يا سيدي؟ لقد خرج الجميع للبحث عنك، كنا على وشك أن نبلغ السلطات، كانت البلاد كلها ستقف على ساق واحدة.

– لقد تعرضت للاختطاف.

أفلتت من ياسين شهقة عالية.

– مَن الذي يجرؤ على ذلك؟

– للأسف، ليست لديَّ فكرة عن هويتهم، لقد حاولوا إعدامي بالغاز، لكنني كتمت أنفاسي وتظاهرت بالموت، ثم غافلتهم وتمكنت من الفرار، لكن لينا المسكينة لم تنجُ.

– لينا؟ من هذه؟

– فتاة كانت مختطفة هي الأخرى، لقد أنقذتها من حريق نشب في الشقة التي كانت تسكن فيها قبل سنوات طويلة، لكن تلك حكاية أخرى، المهم، اتصل بجميع رجالنا واطلب منهم الحضور إلى هنا حالًا، سوف نذهب إلى المكان الذي كنت محتجزًا فيه.

– سأفعل حالًا، لكنك تبدو متعبًا.

تنبه أشرف إلى أنه كان يشعر بالإرهاق فعلًا، تهالك على أقرب مقعد وهو يقول:

– أنت محق، أنا مرهق فعلًا، لقد تعرضت للتعذيب.

قال ياسين باستنكار شديد:

– تعذيب؟ من الذي يجرؤ...

قاطعه بضيق:

– قلت لك لا أعلم، لم أرَ أيَّ وجوه، إنهم يستخدمون وسائل مبتكرة للغاية، لكنني لم أكن صيدًا سهلًا.

– خذ قسطًا من الراحة يا سيدي، سوف أجمع الرجال وأرجع فورًا.

– لا تتأخر.

غادر ياسين الغرفة، في حين استلقى أشرف على الأريكة وأراح رأسه فوق المسند الطري، لم يكن يرغب في النوم ولكنه أغلق عينيه مرغمًا على أيِّ حال، التعب كان قد نال منه؛ لذا فإن جسمه ارتخى سريعًا جدًّا وتخلى عنه إدراكه المتعب.

في المرة التالية التي فتح فيها عينيه، لم يتمكن من رؤية أيِّ شيء. أطلق شتيمة وهو يستوي جالسًا على الأريكة، في حين كان الظلام يغلف أرجاء الغرفة بقبضة حديدية. هل حل الليل؟ هل يعقل أنه ذهب في النوم كل هذا الوقت من دون أن يشعر؟ تلمس طريقه في العتمة نحو باب المكتب وفتحه ثم أطل على البهو الذي لم يكن أقل عتمة. هتف مناديًا:

– ياسين!

لكنه لم يلقَ سوى الصمت، نادى مجددًا بصوت أعلى:

– ياسين، أين أنت؟

أخذ يتلفت حوله في كل الاتجاهات، لكن الرؤية كانت معدومة، ثم تنبه إلى وجود شيء يتحرك وسط العتمة. دقق النظر أكثر، وصل بؤبؤاه إلى أقصى اتساع لهما، كانت أفكاره حائرة في هذه اللحظة، بصره رجح بأنه كان يتوهم، في حين كان عقله يتوجس خيفة. شيء ما كان يقترب منه، لكنه لم يكن قادرًا على أن يتبين معالمه. قال مجددًا، لكن بصوت خافت هذه المرة:

– ياسين، هل هذا أنت؟

العينان الحمراوان اللتان ظهرتا أمامه فجأة من العدم لم تتيحا له الفرصة ليتصرف، لم يملك سوى الصراخ. اليدان اللتان امتدتا لتقبضا على حلقه منعتاه من إكمال صرخته.

16

المشهد

سيارة جيب سوداء تركن على ضفة النهر وبداخلها رجلان.. انشغل أحدهما بقراءة خبر رئيسي في إحدى الصحف اليومية يتعلق بالعملية الأخيرة التي تمكن فيها رجال الأمن من القضاء على آخر معاقل الإرهابيين، والرجل الآخر ينتظر انتهاءه من القراءة وقد ارتسمت على وجهه ملامح ابتسامة فخورة.

أزاح ماجد الصحيفة جانبًا تاركًا العنان لبصره كي يسرح بعيدًا من خلف زجاج السيارة، إلى حيث كان النهر يمتد خلف العوامة الصغيرة التي أصبحت مسكنه الدائم بعد أن خسر وظيفته وجزءًا من جسده. بقي أشرف بانتظار أن يتكلم صديقه، لكن الصمت كان قد طال مداه؛ لذا قرر أن يقطعه بنفسه:

- لقد أخذنا بثأر المرحوم صفوت أخيرًا.

ماجد لم يُجِب، وبدا أنه لم يفُق من شروده حتى، انتظر أشرف ثواني أخرى قبل أن يسأل:

- ما الذي تفكر فيه؟

أزاح بصره من الخارج ونظر باتجاه الفراغ الذي في ساق بنطاله.

- أنا ما زلتُ أحاول أن أفهم، كيف حدث كل هذا، كيف خسرنا رجلًا مثل صفوت؟

نظر أشرف إلى صديقه بإشفاق ظاهر، قال:

- هذا هو صفوت -الله يرحمه-، شجاع ولم يكن يخاف من أيِّ شيء.

- لكنه كان أكثر حرصًا في العادة.

- الفخ الذي نصبوه لنا كان مفاجئًا، شيء لم نكن نعمل له حسابًا مطلقًا، الخيانة أسقطت حكومات ودولًا بأكملها، فما بالك بعدة أشخاص.

- أظن بأنك محق.

أردف أشرف قبل أن يدخل ماجد في نوبة شرود أخرى:

- قل لي، أنت لا تنوي أن تبقى هنا إلى الأبد، أعني في العوامة.

هز كتفيه بلا مبالاة وهو يقول:

- لِمَ لا؟ أنا كما ترى، فقدت وظيفتي وساقي، وليست لديَّ عائلة.

– ماجد، لقد مضت سنوات على الحادثة، عليك أن تمضي قدمًا بحياتك، لا يزال هنالك الكثير من الأشياء التي بإمكانك القيام بها حتى لو كنت...

تردد قليلًا قبل أن يتابع:

– بساق واحدة.

هزَّ ماجد رأسه نافيًا، ثم قال:

– لم يعد هذا مهمًّا الآن.

– اسمع، بإمكاني أن أتدبر لك وظيفة جيدة، أنا بصدد افتتاح شركة للاستيراد والتصدير، اختر أيَّ منصب ترغب فيه.

بدا شيء من الاستغراب على ملامح ماجد، قال:

– شركة استيراد وتصدير؟ يبدو أن ما حصل معنا دفعك لتفكر بتأمين مستقبلك.

أطلق أشرف ضحكة مرحة في محاولة لتحسين مزاج صديقه، قال:

– بالتأكيد، لا أحد يضمن عمره، وأنا الآن لديَّ زوجة وأولاد، اسمع، سنعمل معًا، سيكون لديك دخل إضافي لا بأس به، إضافة إلى راتب الإعالة، وسأتدبر لك شقة صغيرة، وسأبحث لك عن عروس بنفسي.

افترَّت ملامح ماجد عن ابتسامة حزينة، قال:

– أقدر لك هذه المبادرة، لكنني مضطر إلى الرفض.

– لماذا؟

قال وهو يشير باتجاه ساقه المبتورة التي كانت تصر على فرض نفسها في أيِّ محادثة:

– أنا لم أعد أصلح لهذا النوع من الحياة.

– لكن...

قاطعه ماجد:

– كل ما أريده هو أن أخلو بنفسي وأبتعد عن الناس، هذا هو الشيء الوحيد الذي أرغب فيه، سأبقى هنا في العوامة، لا تقلق عليَّ، سأكون قادرًا على تدبر شؤوني جيدًا.

تنهد أشرف، يعلم تمامًا أن «ماجد» شخص عنيد للغاية، ومن الصعب دفعه إلى تغيير رأيه، قال:

– لا بأس، إذا كانت هذه هي رغبتك.

ثم استدار باتجاه المقعد الخلفي الفارغ وتناول كيسًا بلاستيكيًّا بداخله علبة كرتونية مغلفة بورق ملون، أخرجها من الكيس وناولها لماجد الذي سأله مستفهمًا:

- ما هذا؟

- هذه هدية.

- هدية؟

- بالطبع، هدية عيد ميلادك، كل سنة وأنت طيب.

- آه، عيد ميلادي، صحيح، كدت أنسى.

- ولكن أنا لم أفعل.

- ما هذه؟

- قطعة أثرية، أظن أنها ستنال إعجابك.

أزال ماجد ورق الزينة عن العلبة، ثم فتحها وأخرج منها قنديلًا خشبيًّا عتيقًا. قال أشرف:

- قنديل من العصر الروماني، حصلت عليه بعد مساومة شديدة وكلفني مبلغًا لا يُستهان به، أعلم أنك كنت تحب جمع الأنتيكات فيما مضى.

ابتسم ماجد وهو يقول:

- هذا كان من الماضي، الآن لم أعد شغوفًا جدًّا بهذه الهواية، لقد بعت معظم مقتنياتي أخيرًا.

- لن تخدعني، أعرف أنك لا تزال تحب هذه الأشياء، كما أن القنديل في حالة جيدة جدًّا، يمكنك أن تستخدمه للإنارة ما دمت قد قررت أن تبتعد عن الشقق التي يستخدمها البشر العاديون، تعرف، تلك التي يوجد فيها كهرباء.

أطلق ماجد ضحكة قصيرة، ثم قال:

- حسنًا، لا بأس، شكرًا لك.

ربت أشرف على كتفه وهو يقول:

- لا شكر على واجب، لهذا السبب وُجِد الأصدقاء.

17

فتح الرجل عينيه وهو يصرخ ويحرك يديه بعشوائية في محاولة لمنع عدو وهمي من إخماد أنفاسه، استغرق منه الأمر بضع ثوانٍ ليدرك أنه كان مجرد حلم. قالت لينا متسائلة:

- كابوس؟

تأملها بعينين ضيقتين، ثم التفت ليتأمل الجدران السوداء من حوله، اعتدل في جلسته وهو يقول:

- كابوس مريع، حلمت بأنني خرجت من هذه الغرفة وعدت إلى مسكني، ثم ظهر لي ذلك الشيء الذي كنتِ تتحدثين عنه.

- الشيطان تقصد.

لكنه لم يرغب في أن يوافقها الرأي، قال:

- يبدو أنكِ زرعتِ في عقلي الباطن أفكارًا غريبة، هذا هو السبب.

توقف عن الكلام هنيهة، ثم قال:

- لقد تذكرت اسمي أخيرًا، الآن أصبحت أعرف من أنا.

قاطعته قائلة:

- أشرف وهيب.

نظر إليها متفاجئًا، ثم قال:

- أنتِ تعرفين اسمي؟

- ليس اسمك فقط، أنا أعرفك جيدًا جدًّا.

لكن النظرة الجديدة التي ارتسمت على ملامحها أثارت في داخله الكثير من الشكوك. كانت نظرة ازدراء محض.

- هل سبق أن التقينا من قبل؟ عدا عن تلك المرة التي كدت تحترقين فيها وأنت طفلة.

ردت عليه بنبرة لا تقل مقتًا:

- لِمَ لا تحاول أن تتذكر؟

كان يحاول أن يخترقها بنظراته، يحاول أن يفهم سر هذا التبدل الذي حصل على سلوكها فجأة، النظرة الاتهامية الباردة والوجه الذي تحول إلى التجهم. لكن الموقف الجديد دفعه إلى التفكير باتجاه آخر، تساءل في قرارة نفسه، ما الذي تعرفه هذه الفتاة؟ والأهم، هل لها أيُّ دور في وجودهما في هذا المكان؟ قال بنبرة بدأت تنهل منها الشكوك:

- حسنًا، الآن صرت متأكدًا من أننا نعرف بعضنا جيدًا، اسمعي، أنتِ تبدين فتاة طيبة، لِمَ لا تخبريننني ما الذي يحدث تحديدًا؟

أصرَّت مجددًا:

- حاول أن تتذكر.

كان على استعداد لأن يرد بانفعال، لكن الظل الذي ظهر على الأرض ألجم لسانه.

تنبهت حواسه بأكملها، في حين لم تُبدِ الفتاة الكثير من الاهتمام، لكنها سألت من باب الفضول:

- ماذا هناك؟

- هناك ظل على الأرض، هل هذا...

قال وهو ينظر إلى الأعلى:

- انعكاس.

كان هنالك شيء في الأعلى يعيق مسار النور الخافت الذي يتسلل من فتحة السقف الصغيرة، غيَّر مكانه وتقدم مترًا إلى الأمام حيث أصبح يجلس تحت الفتحة مباشرة ونظر إلى الأعلى، رأى وجها آدميًّا يطل من الفتحة. لم يصدق نفسه، قال بانفعال:

- هذا الرجل، أنا أعرفه، هذا ياسين، مساعدي.

قالت الفتاة بسخرية ظاهرة:

- لنرَ إن كان قادرًا على مساعدتك إذن.

لم يُعِرها انتباهًا، فقد كان لديه ما هو أكثر أهمية بكثير، هتف بصوت عالٍ:

- ياسين!

نظر الرجل من الفتحة الصغيرة، بدت ملامح وجهه ذاهلة. صاح أشرف مجددًا وهو يلوح بيديه مثل شخص في جزيرة منعزلة يلوح لطائرة:

- ياسين، أنا هنا بالأسفل.

قرب الرجل وجهه من الفتحة أكثر، وكانت ملامحه تزداد ذهولًا مع كل لحظة، في حين بدأ أشرف يشك في أن ياسين يتجاهل وجوده متعمدًا، يستحيل ألا يكون قد سمعه. كان يراه، هذا أمر مؤكد.

- أيها الأبله، لِمَ لا تجيب؟ أنا هنا يا أحمق.

بقي الوجه متجمدًا للحظة، ثم بدأ يبتعد تدريجيًّا حتى اختفى تمامًا، في حين ظل أشرف يصرخ وقد انتابه غضب عارم، ثم بدأ بإكالة الشتائم جزافًا لياسين ولكل فرد من أفراد عائلته، انتهى به الأمر إلى لهاث متسارع. قالت لينا وهي تنظر إلى الأعلى بدورها:

- صديقك يتلصص عليَّ.

قال أشرف بانفعال:

- اِلْفتي انتباهه، اصرخي باسمه، افعلي أيَّ شيء.

كانت تنظر إلى الوجه الذي يطل عليها من الأعلى بشيء من الاستمتاع، قالت:

- لِمَ يبدو خائفًا إلى هذا الحد؟

صاح أشرف:

- اطلبي منه المساعدة.

تابعت هي كلامها بالسياق ذاته الذي بدأته:

- لِمَ يبدو كما لو أنه رأى شيطانًا أو شبحًا؟

صرخ أشرف وقد عاوده الغضب مجددًا:

- لماذا لا تفعلين شيئًا؟ اطلبي منه أن ينجدنا، اصرخي.

لكنها لم تُبدِ أيَّ بادرة اهتمام، ثم قالت أخيرًا:

- صديقك قد رحل على ما يبدو.

أطلق صرخة يائسة، ثم أخذ يضرب الأرض بقبضة يده، وحينما بدأ يشعر بالتعب قرر أن يوجه فورة غضبه نحو شيء أقل إيلامًا. رفع رأسه ونظر باتجاه لينا، قال بهدوء مصطنع:

- لماذا لم تفعلي أيَّ شيء.

قالت بنبرة عادية:

– لأنه لا يوجد أيُّ شيء يمكن أن نفعله، لا أنا ولا أنت ولا صاحب الرأس الكبير الذي كان ينظر من الأعلى، لا أحد بإمكانه أن يفعل أيَّ شيء.

جلس على الأرض وأسند ظهره إلى الحائط مجددًا، هذه المرة كان اليأس باديًا عليه، حتى الفتحة الصغيرة التي بدا أنه لا يوجد أيُّ فائدة منها إلا للسماح ببعض الضوء للولوج إلى الغرفة قد سدت في وجهه، تصرُّف مساعده المخلص كان صادمًا بحيث قضى على كل أمل متبقٍّ له.

كيف يفعل ياسين به هذا؟ لِمَ تظاهر بأنه لم يرَه أو يسمعه؟ لماذا لم يحاول مساعدته؟ لكن حينما فكر قليلًا وظن أنه أدرك ماهية الأمر، تحولت مشاعره إلى الغضب مجددًا، قال مدمدمًا:

– مستحيل، ذلك اللعين، هل يعقل؟ كيف لم أنتبه إلى هذا الأمر.

تأملته لينا بعينين تملكهما الفضول، لكنها التزمت الصمت. تابع أشرف كلامه المفعم بالإحباط والاستياء:

– ياسين، الشخص الوحيد الذي كنت أضع كامل ثقتي به يخونني، لقد تآمر مع أعدائي ضدي، كيف لم أنتبه إلى هذا؟

بدا على وجهها شيء من الاستمتاع الغريب، كأن ارتباكه كان مسليًّا لها بشكل ما، قالت:

– لا يعرف المرء بمن يمكن أن يثق هذه الأيام.

التفت إليها وقال:

– اسمعيني جيدًا، ما زلتُ لا أعلم ما دوركِ في كل هذا الأمر، لكنني أصبحت متأكدًا من أنك متورطة بشكل أو بآخر.

هزَّت كتفيها النحيفتين غير مبالية، ثم قالت:

– كما ترى، أنا حبيسة القيود مثلك تمامًا.

– لكنكِ تعرفين شيئًا لا أعرفه.

– أتظن ذلك؟

– أنا متأكد من ذلك، ردة فعلك الغريبة حينما عرفتِ هويتي، ذلك التحول الذي طرأ عليك فجأة والذي جعلك عدائية ومتهكمة، لا بل شامتة، أنتِ بالتأكيد تعرفين شيئًا لا أعرفه.

قالت باللامبالاة ذاتها:

– كل ما هنالك هو أنني استعدت ذاكرتي قبلك، أنت بحاجة إلى المزيد من الوقت لتفهم كل شيء بالطريقة التي أصبحتُ أنا أفهمها الآن.

– ما الذي ترمين إليه؟

لكنها لم تجب، زاد انتباهها فجأة. سألت:

– من هذا الرجل؟

ارتبك حينما لاحظ أنها لم تعد تنظر باتجاهه، لكنه حافظ على وتيرة حادة وهو يسأل:

– ماذا؟

– الرجل الذي يقف عند الجدار بجانبك.

أدار وجهه بحركة بطيئة، وأفلتت من فمه شهقة مدوية. كان رجلًا طويلًا بأكتاف عريضة، وقف منتصبًا ووجهه باتجاه الجدار، بالرغم من أن أشرف لم يتسنَّ له رؤية وجهه فإنه عرفه على الفور. «مستحيل، تمتم لنفسه، هذا غير ممكن».

استوى واقفًا وهو يحدق إلى ظهر الرجل بعينين ملأهما الذهول، وسار باتجاهه.. لكن السلسلة عوَّقت تقدمه، مد يده في محاولة ليلمس كتف الرجل الذي كان يقف ساكنًا كتمثال هائم.

– صفوت.

لم يتلقَّ أيَّ إجابة.

– صفوت، صفوت.

أطراف أصابعه تمكنت بالكاد من الوصول إلى أعلى كتف الرجل، لكن ملمسه كان جليديًّا، البرودة انتقلت إلى جسد أشرف مثل رعدة كهربائية.

– صفوت، هل هذا أنت حقًّا؟

بدأ الجسد يتحرك ببطء، في حين وقف أشرف مترقبًا بكامل تركيزه وهو يحدق إلى الرأس الذي استدار ببطء ليكشف عن ملامح وجه صديقه القديم، لكن وجه صفوت لم يبعث في نفسه أيَّ شعور بالراحة إطلاقًا. وجه صفوت كان شاحبًا، الدماء كانت تغطيه في حين كان هنالك ثقب قرمزي شوه شكل جبهته. ازدرد أشرف لعابه، صفوت كان ميتًا.

في اللحظة التي كان يحاول بها أن يستوعب المشهد الماثل أمامه، تحول وجه صفوت سريعًا إلى اللون الأسود، وتحولت عيناه إلى اللون الأحمر كأن حريقًا قد اشتعل فيهما،

أطلق صرخة مخيفة وفتح فمه كاشفًا عن أنياب حادة قبل أن يهاجم أشرف الذي تراجع إلى الخلف مذعورًا وهو يحاول أن يحمي وجهه بيديه حتى ارتطم ظهره بالجدار وسقط بعدها على الأرض.

استغرق منه الأمر بعض الوقت ليدرك بأن الخطر قد تلاشى. أزاح كفيه اللتين كانتا تغطيان وجهه ونظر في الاتجاه الذي كان شبح صفوت المخيف واقفًا فيه، لكنه لم يرَ سوى جدارٍ أسود.

أخذ وقتًا إضافيًّا حتى استعاد جسده هدوءه وعادت أفكاره إلى مسارها الطبيعي، بحث عن غضبه مجددًا حتى عثر عليه، وعاد لينظر إلى الشخص الوحيد الذي لم يعد لديه الآن أدنى شك في أنه السبب وراء كل ما يحصل. قال بنبرة منذرة بالكثير من الرعود:

– أيتها اللعينة، لا أعرف ماهية هذه اللعبة التي تمارسينها أنتِ ورفاقك، لكنكِ لن تنجي بفعلتك هذه أبدًا.

رمقته بنظرة باردة من دون الكثير من الاهتمام، ثم قالت بنبرة فيها الكثير من الازدراء:

– افعل ما بدا لك، لم يعد ذلك يشكل أيَّ أهمية.

– ما الذي ترمين إليه؟

لم تُجِب، في حين كان بصرها مصوبًا باتجاه الأرض.

كرر سؤاله بصوت أكثر انفعالًا:

– ما الذي ترمين إليه؟

– لا أظن أن أيًّا منا سيعود إلى حياته الطبيعية بعد الآن، العالم الذي كنا نعرفه قد انتهى، لكنك لا تدرك ذلك بعد.

18

المشهد

شارع أنيق ومعبَّد تنتشر الشجيرات على كلا جانبيه، سور حجري عالٍ أبيض بنقوش صغيرة وبوابة معدنية ضخمة وقف عندها رجلان فارعا الطول وقد ارتدى كلاهما بدلة سوداء ونظارة ريبان مقلدة، وعلى الطرف الآخر من الشارع تقف فتاة بملابس رثة وأمامها عربة لبيع العصائر، وسيارة جيب سوداء تتهادى من نهاية الشارع باتجاه البوابة.

وقف الرجلان باستقامة استعدادًا لإلقاء التحية على رئيسهما في حين كانت الفتاة تجر عربتها بالقرب من المكان، وتأملت بدورها السيارة التي كانت تستعد للولوج إلى البوابة. أنزل أشرف النافذة وأشار إلى الفتاة كي تقترب، أطاعته بلهفة.

- عرقسوس يا باشا.

تأملها مليًّا قبل أن يسألها:

- لاحظتُ بأنكِ تقفين في هذا المكان منذ أيام.

- أبحث عن رزقي في أيِّ مكان يا باشا، أنا يتيمة، ولديَّ عائلة تعتمد عليَّ.

- ليس في هذا المكان، لن تعثري على زبائن هنا، أقترح عليك أن تجربي في مكان آخر، في سوق شعبية أو أيِّ مكان مزدحم بالناس.

- كما ترى يا باشا، ما رأيك في أن تجرب كوبًا؟

- شكرًا، أنا لا أحب العرقسوس.

- لكنه لذيذ، الرجال الذين يعملون لديك أعجبهم طعمه كثيرًا.

قال وهو يقهقه:

- هؤلاء يشربون أيَّ شيء يُقدَّم لهم.

ثم وضع يده في جيبه وأخرج عملة ورقية عالية القيمة، ناولها إياها وهو يقول:

- يمكنكِ أن تقدمي لهما كوبين إضافيين على حسابي، واحتفظي بالباقي.

ارتسم الفرح على معالمها سريعًا، قالت بنبرة مفتعلة:

- لكن هذا كثير يا باشا.

– لا بأس، لقد استحققت ذلك، المهم، حاولي أن تعثري لك على مكان آخر، هذا الحي يسكنه جماعة من كبار مسؤولي البلد، وقوفك في هذا المكان يمكن أن يثير الشكوك.

– بالتأكيد يا باشا، بالتأكيد.

لمعت عيناه فجأة، وتحولت معالم وجهه إلى الاستهجان الشديد في حين كان المشهد يمر بعقله مثل قطار سريع.

– أيتها اللعينة، أنتِ بائعة العرقسوس التي كانت تقف أمام باب الفيلا.

قالت بنبرة ساخرة:

– آه، أنت تتذكر إذن.

– كان يجب عليَّ أن أدرك الأمر من البداية، لقد كنتِ تراقبين، أنتِ جزء من هذا الأمر.

لكنها هزت رأسها نافية، قالت:

– لستُ مسؤولة عن وجودك هنا، ولو كان الأمر بيدي لاخترت أن أحتجز في أبعد مكان عنك وليس على بعد عدة أمتار فقط.

نظر إليها أشرف بتشكك، فكر في أنه لم يعد هنالك مكان لإخفاء ما يجول بعقله، تحولت نظرته من الحياد إلى العدائية، وقال بصوت جاف:

– اسمعي يا فتاة، لا أعرف ما الذي تفعلينه هنا ولا من هم وراءك، لكن كوني واثقة من أنك ستندمين كثيرًا، أشرف وهيب ليس الشخص الذي يمكن التلاعب معه.

– أنا في الحقيقة لا أعرف بهذا الشأن، لست أنا من يحدد فيما إذا كنتَ الشخص المناسب للتلاعب به أم لا، أنا سجينة مثلك كما ترى.

– لماذا؟ على الأقل أخبريني بذلك، لِمَ يحدث كل هذا؟

قالت وهي تشيح بوجهها باتجاه الجدار:

– لِمَ لا تحاول أن تكتشف السبب بنفسك؟

– آه.

وضع يده على ذقنه وهو ينظر إليها بغيظ. فتاة هاوية، غالبًا هم عصابة من الهواة، لكن الفارق هذه المرة هو أنهم يمتلكون إمكانات أكبر من حجمهم بكثير. قال مشيرًا بكلامه إلى الشخص الذي يفترض أنه يدير هذا العرض:

– جيد للغاية، ومن ذلك الشخص الذي يحدد ذلك؟

- ليس شخصًا على وجه التحديد، أعني ليس إنسانًا من لحم ودم، نحن البشر قدراتنا محدودة للغاية.

قال أشرف بغضب:

- دعكِ من الكلام الفارغ، لن أقع فريسة لهذه الحيل مجددًا.

هزت رأسها ثم قالت:

- لا بأس، حينما يحين الوقت سترى بنفسك، وسنعرف كلانا إن كنتَ قادرًا على تنفيذ تهديداتك.

- أشباح، شياطين، عفاريت، والمزيد من الهراء.

هزت الفتاة رأسها نافية.

- هذا ما كنت أعتقده في البداية، لكن الآن، لم أعد كذلك.

وقف أشرف وأخذ يلوح بيديه في الهواء وهو يصرخ:

- أيًّا كان، سوف يندم على ذلك، هل تسمعين؟ سوف تندمون جميعكم.

ثم ركز نظره باتجاهها، قال:

- وأنتِ أيضًا ستندمين.

- ما الذي يمكن أن تفعله؟

- سوف أقتلك بيدي.

قالت بالكثير من اللامبالاة:

- وإن يكن، أنا سأموت في كل الأحوال سواء قتلتني أو لم تفعل، لكن العبرة ليست بالموت، الموت سهل، لمحة، طيف عابر بالكاد ستشعر به، العبرة بما سيحل بنا بعده.

صرخ:

- لا شيء بعد الموت، العدم فقط.

- وماذا عن العواقب؟

- أيُّ عواقب؟

- عواقب الأفعال الظالمة.

ارتسمت على ثغره ابتسامة ساخرة، في حين تابعت بثقة:

– أتعتقد أن الظلم يمكن أن يمر من دون محاسبة؟ ستكون مخطئًا جدًّا لو اعتقدت بذلك، بإمكاني أن أستعير شيئًا مما تؤمن به لأحاول إقناعك، إذا ظلمت شخصًا فأنت تُعرِّض نفسك للقوانين الفيزيائية المعروفة التي تؤمن بها حضرتك، كل تصرف ظالم يقابله عقاب مساوٍ له في المقدار ومعاكس له في الاتجاه.

هذه المرة لم يُجِب، الذاكرة لم تُتِح له وقتًا ليجد ردًّا مناسبًا، توقف عن الكلام فجأة، وبدأ فمه ينغلق تدريجيًّا وظهر التركيز في عينيه. لقد كان يعرف ما الذي فعله بالضبط، فقد تذكر الكثير، في حين كانت الفتاة لا تزال مصرة على أن الظلم لا يتلاشى في الهواء. الظلم عواقبه وخيمة، وسيعود وبالًا على صاحبه.

19

المشهد

مساحة متوسطة الحجم، جدران خشبية ونافذة ذات شكل دائري تطل على البحر، سرير لا يتسع سوى لفردٍ واحد، وطاولة مكتب قديمة عليها جهاز راديو صغير يعمل بالبطاريات، صندوق كرتوني بداخله الكثير من أوراق الصحف والمجلات، رفٌّ خشبي معلق على الجدار.. رُتِّبت فوقه مجموعة من التحف والتماثيل الخشبية الصغيرة بأشكال مختلفة، قنديل عتيق ومزخرف معلق على أحد الجوانب ليُشكل مصدر الإضاءة الوحيد في المكان، ورجل بقدم واحدة يستند إلى عكاز ويراقب الشمس الآخذة في الغروب من خلف النافذة الوحيدة في المكان.

شعر باهتزاز طفيف في جنبات العوامة، أدار وجهه واستعد لاستقبال القادم، لم تمضِ سوى ثوانٍ قليلة قبل أن يظهر أمامه رجل لم يسبق له أن رآه من قبل. بادره بأسلوب جافٍّ قبل أن يجد الزائر الفرصة لإلقاء التحية:

- من حضرتك؟

قال الرجل بشيء من الارتباك:

- آسف جدًّا لإزعاجك من دون موعد مسبق.

كرر ماجد السؤال بغلظة:

- مَن أنت؟

- أنا اسمي معاذ، صحفي بقسم الحوادث في جريدة...

قاطعه بالنبرة الجافة ذاتها:

- وماذا تريد؟

- حسنًا، هناك أمر مهم أرغب في أن أسألك عنه.

- ليست لديَّ إجابة.

توقف معاذ عن الكلام للحظة، ثم قال:

- لا، لا تقلق بهذا الشأن، أنا لست هنا في عمل رسمي، أنا هنا بصفة شخصية، ما أتيتك من أجله ليس للنشر، لك مني وعد بذلك.

- أعتقد بأنك أسأت الفهم، لأنه أيًّا كان سبب قدومك، سواء كان بصفة رسمية أم شخصية، لست مهتمًّا وليست لديَّ أيُّ إجابات عن أيِّ شيء.

ابتسم معاذ، حاول أن يضفي على ابتسامته طابع ودٍّ خالص.

- لكنك لم تعرف بعد ما الذي أرغب في أن أحادثك بشأنه.

- لست مهتمًّا قلت لك.

أصرَّ معاذ بفضول الصحفي المعتاد:

- لو تمنحني دقيقة فقط من وقتك.

- اسمع، لا تظن أن حقيقة كوني بساق واحدة ستمنعني من إلحاق الأذى بك.

لكنه تماسك بالرغم من القلق الذي بدأ ينتابه، حاول أن يلعب على الأوتار الأخرى المتاحة، وقال:

- هل هذه هي الساق التي فقدتها في العملية التي تعرضتم فيها للخيانة؟

نظر إليه الرجل بدهشة، قال معاذ متابعًا:

- لقد قمتم بعمل بطولي في ذلك اليوم، كانت تضحية عظيمة حقًّا.

قال باستهزاء ومرارة:

- وما الذي تعرفه حضرتك عن التضحية؟

- لا أعرف، ولن أعرف أبدًا، لأن من يده بالماء ليس كمن يده بالنار، لكنني أتفهم مقدار الألم الذي عانيتَه طيلة هذه السنوات من جراء فقدانك أعز أصدقائك إضافة إلى ساقك.

- لست نادمًا على شيء، ولو تكرر الموقف مجددًا لن أتوانى لحظة واحدة، كل ما أنا نادم عليه هو أنني لم أظفر بالشهادة مثل بقية زملائي.

- كما أنك لم تنل التقدير الذي تستحقه كذلك.

قال ماجد بصوت بدا أقل عدائية:

- لست أبحث عن التقدير.

- أعرف ذلك جيدًا، لكنّ بالمقابل شخصًا واحدًا نال كل الثناء.

تأمله الرجل مليًّا، ثم قال:

- هل هو مَن أرسلك؟

- مَن تقصد؟

- تعرف جيدًا مَن الذي أقصده.

قال معاذ وهو يومئ برأسه نافيًا:

– لا يا سيد ماجد، صديقك السابق ليس هو من أرسلني، ولا يعرف أيَّ شيء عن هذه الزيارة.

لاحظ نظرة الشك التي ارتسمت على ملامحه، قال مستدركًا:

– لأنه لن يكون سعيدًا لو عرف سبب حضوري للتحدث معك.

قال ماجد باهتمام جاد هذه المرة:

– ما الذي جئت لتتحدث بشأنه؟

تهللت أسارير معاذ، لكنه أبقى على حذره، قال:

– العملية التي فقدت فيها ساقك وأعز أصدقائك.

– ما بها؟

– حسنًا، يمكن أن تقول إن لديَّ شكوكي الخاصة بشأن ما حدث.

لم يُجِب مباشرة، لكن بدت عليه أمارات التفكير، أدرك معاذ عندها أنه قد نجح في جلب انتباهه. سأل أخيرًا:

– ما الذي تعرفه عن الأمر؟

قعد معاذ على أقرب مقعد وقال:

– شخص ما نبَّه الإرهابيين وأخبرهم بموعد المداهمة، ولاحقًا أُدِين رجل يعمل في قسم العمليات بتهمة التعاون مع الإرهابيين، والتسبب بمقتل عناصر من الأمن، وأُدين ثلاثة أشخاص آخرين، وحُكِم عليهم جميعًا بالإعدام، وأُقفِلت القضية، لكنني مع ذلك لاحظت بعض الأشياء الغريبة.

– أشياء مثل ماذا؟

– هل سمعت بشخص يُدعَى نادر فهمي؟

قال بسرعة:

– لم يسبق لي أن سمعت بهذا الاسم من قبل، أنا لا أعرف الكثير من البشر هذه الأيام.

أطلق معاذ تنهيدة قصيرة، ثم قال:

– هذا الشخص كان أحد أصدقائي المقربين، وكان واحدًا من محامي الدفاع عن المتهمين الذين أُدينوا في تلك القضية.

– أفهم مِن استخدامك صيغة الماضي أنه لم يعد صديقًا لك؟

- لا، لم يعد صديقًا لأحد، لقد تُوفِي.

- الله يرحمه، وهل يُفترض بي أن أعرفه؟

- لا أعلم، لقد افترضت أنه ربما حضر ليتحدث معك بهذه المسألة، إذ كما قلت لك، المرحوم نادر قبل وفاته بوقت قصير كان يترافع في القضية التي أُدِين فيها أولئك الأشخاص بتهم الخيانة العظمى وتسريب المعلومات وتسهيل أعمال إرهابية، وكان قد توصل بالصدفة إلى استنتاج خطِر يدين شخصًا آخر يعمل في الأمن، كان يستعد لعرض جميع شكوكه في مرافعته الختامية أمام المحكمة كي يُسلِّط الضوء على المتورط الحقيقي، لكنه تُوفِّي قبل موعد الجلسة التالية بظروف مريبة.

- ظروف مريبة؟

أومأ معاذ موافقًا، ثم قال:

- لقد توفي وزوجته في حريق نشب في الشقة التي يسكن فيها.

- حريق؟

- نعم، تقرير الشرطة أفاد وقتها أن الحريق حدث نتيجة تسريب في أنبوبة الغاز، لكنني بصراحة أشك كثيرًا في صحة هذا الاستنتاج.

ثم تابع بصوت أقرب إلى الهمس:

- ما أعتقده هو أن الحريق مدبَّر، وأن نادر قد قُتِل.

انتظر قليلًا، لكن ماجد لم يُعلِّق، لم يكن قد سبق له أن سمع عن هذا الأمر بالرغم من أنه كان يواظب على متابعة أخبار القضية.

- ليس نادر فقط هو من تُوفي وفاة تثير الشكوك، هناك شخص آخر، حارس العمارة التي كان يسكنها المرحوم نادر، ادَّعى أنه رأى رجلًا غريبًا عن المكان يصعد السلالم قبل وقت قصير من نشوب الحريق، لكنه لاحقًا غيَّر أقواله وادَّعى أن الشخص الذي لمحه هو أحد قاطني العمارة، ثم ترك عمله مفاجأة وعاد إلى قريته الأصلية، تمكنتُ من الوصول إليه لكن الأوان قد فات، لقد توفي هو الآخر.

قال ماجد باهتمام:

- وأنت تظن أنه قُتِل أيضًا؟

- بالضبط، لقد تكلمت مع قريب له، وهو آخر شخص رآه قبل أن يفارق الحياة، الرجل كان بصحة جيدة ولا يعاني أيَّ مرض، ثم يُصاب فجأة بنوبة قلبية ويموت خلال وقت قصير، لا أظن أن الأمر مجرد قضاء وقدر، هذا الرجل تُخلِّص منه أيضًا، ما أعتقده هو أن الحارس قد تلقى رشوة كي يغير أقواله، ربما أنه لاحقًا طلب المزيد من

النقود أو أن القاتل توجس من أن يرجع عن الاتفاق في أيِّ لحظة؛ لذا قرر أن يتخلص منه نهائيًّا، شخص محترف ولديه الخبرة الكافية، بإمكانه أن يُظهِر الأمر على أنه حادث، أتعلم ماذا أيضًا؟ أعتقد أن كل هذه الحوادث مترابطة، إسكات نادر قبل أن يتوصل إلى حقيقة ما حدث في تلك العملية، وإسكات الحارس الذي لمح القاتل وهو يصعد السلالم، وإخفاء هوية الخائن الحقيقي والتسبب بإعدام أشخاص أبرياء، وبالنتيجة فإن هناك شخصًا واحدًا فقط خرج فائزًا بكل شيء.

لمعت عينا ماجد، ما قاله له الصحفي للتو كان تأكيدًا لجميع شكوكه، لكنه حافظ على تحفظه. قال:

– وإن يكن، هنالك مستفيد من الأحداث السيئة دائمًا، لكن هذا لا يعني أنه تسبب بها.

– بل أنا على يقين من أنه قد تسبب بها، هذا ما كان المرحوم نادر قد توصل إليه، وما دفع حياته ثمنًا له.

مضت لحظة صمت مشحونة، قطعها ماجد قائلًا:

– إذن، أنت تقصد أن الخائن هو الشخص الذي يعرفه كلانا.

أومأ معاذ موافقًا.

– وأنت تعلم أنه يمكنك أن تدفع حياتك أنت أيضًا في حال علم بأنك جئت لتتكلم معي، وربما أنا أيضًا.

تردد معاذ قليلًا، ثم قال:

– نعم، أعلم.

– لقد شككت بأمره منذ زمن طويل، لكنني أرغمت نفسي على ألا أفكر بالأمر مجددًا، ثم آثرت بعدها الابتعاد عن كل ما يمت للماضي بصلة، حسنًا، إذا كنت تريد أن تعرف، نعم، أظن أن أشرف هو المسؤول عن تلك الخيانة، هو الذي اتصل بالإرهابيين وحذرهم من الهجوم الوشيك، وبالوقت نفسه تخلص من الشخص الذي يعلوه في الرتبة وحل مكانه، ثم انقلب على الجماعة الإرهابية وصفَّاهم، وظهر لابسًا ثوب البطل أمام الكاميرات، وهو الذي لفَّق التهمة للمساكين الذين أعدموا، وتخلَّص من عبء هذه التهمة نهائيًّا، لقد فكرت في الأمر مليًّا، لكن هذا كله مجرد محض افتراضات.

هزَّ معاذ رأسه موافقًا، ثم قال:

– أضف إلى ما قلته أنه تخلَّص من المحامي الذي أوشك على أن يكشف أمره، وتخلص من حارس العمارة الذي رآه.

أطرق ماجد بأفكاره هنيهة، ثم قال:

– على أيِّ حال، لا أظن أن باستطاعتك أن تثبت أيَّ شيء، حتى لو كان الحريق في شقة المحامي مفتعلًا، أو أن الحارس تعرض لعقار سام تسبب بنوبة قلبية، من الصعب إثبات أيٍّ من هذه الأمور بالأدلة الشرعية، هناك سموم لا يظهر لها أثر بعد الوفاة.

تردد معاذ مجددًا، ثم قال:

– حسنًا، سأخبرك بكل ما لديَّ، لكنّ هناك أمرًا آخر ما زلت مترددًا بشأنه.

نظر إليه ماجد متسائلًا.

– ربما يبدو ما أقوله لك جنونيًّا، لكن، لقد تكررت الرواية في أكثر من مرة بحيث يتعذر معها أن يكون الأمر مجرد صدفة.

– ما الذي تتحدث عنه بالضبط؟

– حسنًا، لا أعرف كيف أصف الأمر، كلامي قد يبدو جنونيًّا...

تردد قليلًا، وبحث عن أفضل صيغة ممكنة ليطرح سؤاله، ثم قال:

– هل تعتقد أنه كان يتعامل مع الجن؟

– جن؟

– جن، شياطين، تعلم، يستحضر أحد أفراد العالم السفلي ويُسخِّره لخدمته أو شيء من هذا القبيل.

– ما الذي دفعك إلى هذا الاعتقاد؟

أخذ معاذ نفسًا عميقًا، ثم قال:

– اسمع، هنالك شهود رأوا القاتل، الفتاة الصغيرة رأت كيانًا أسود بمعالم غير واضحة وعينين حمراوين في الليلة التي قُتِل فيها والداها، وهنالك صديق الحارس الذي ادَّعى أنه رأى الشيء نفسه، وأطلق عليه اسم شيطان المقابر.

بدا أن ماجد على وشك أن يضحك لكنه لم يفعل، سأل في محاولة ليتأكد من صحة ما سمعه:

– كيان أسود لكن معالمه غير واضحة.

– صحيح.

– ما الذي تقصد بمعالمه غير الواضحة؟

– أقصد، شيء شبيه بالبشر، ذراعان وقدمان وبنية جسمانية قوية، لكن معالم وجهه غير ظاهرة.

هتف ماجد:

– إذن فهو إنسان، كائن بشري، لكنه يلبس ملابس سوداء ويصبغ وجهه بلون أسود قاتم، نوع من الطلاء الحاد اللون الذي يمكن وضعه وإزالته بسهولة، شيء شبيه بما يقوم به الجنود في الحرب.

– لكن الشهود لم يعتقدوا بأنه آدمي.

– ما تعتقد أنك رأيته يختلف تمامًا عما هو موجود فعلًا، هنالك عوامل عديدة تؤثر على صحة الإدراك في مواقف معينة، منها صغر السن أو الخوف.

– ماذا عن عينيه الغريبتين، هل...

ثم توقف عن الكلام بعد أن أدرك خطأه، في حين ضحك ماجد لأول مرة منذ وقت طويل، وقال:

– أجل، مثلما خطر ببالك للتو، لقد كانت مجرد عدسات لاصقة، الآن أصبحتُ متأكدًا من صحة اتهاماتك ومن أن صديقنا المشترك هو المسؤول عن كل ما حدث، هذا هو أسلوبه المعتاد.

– أوه...

شعر معاذ بأنه قد تمكن أخيرًا من وضع كل النقاط فوق الحروف، هتف قائلًا:

– أوه، معقول، كان مشهدًا مخادعًا.

قال ماجد بهدوء:

– يمكنك القول إنها علامة خاصة به، كان يصبغ وجهه بالكامل باللون الأسود، ويضع عدسات لاصقة حمراء على عينيه، هذه طريقته لإخافة خصومه، كما كان مولعًا باستخدام السموم والعقاقير الفريدة، المايتوتوكسين على سبيل المثال، سُمٌّ فتَّاك يُستخرج من الطحالب ويسبب قصورًا في القلب، أو ربما استخدم حقنة هواء لصنع فقاعات في الوعاء الدموي؛ ما سيؤدي لإغلاقه ومنع وصول الدم إلى القلب والدماغ، كان يرغب في أن يجرب ذلك دومًا، وأيًّا كان ما قام به فإنه جعل الأمر يبدو كأنه نوبة قلبية، ولن يشك أحد بما يكفي لإجراء تشريح للجثة.

سكت قليلًا وقد اعتراه الغضب على حين غرَّة، ثم قال:

– لا أظن أنك ابتعدت عن الواقع، أشرف يردد دائمًا أن الشياطين البشرية هي الشياطين الحقيقية الوحيدة، وأن كل ما عدا ذلك هو محض خرافة، الآن أعرف بأنه

كان يشير إلى نفسه، هو ليس مجرد آدمي يتنكر بزي شيطان، هو شيطان حقيقي.

ظل ينظر إلى الأرض لوهلة، قبل أن يرفع رأسه وينظر باتجاه معاذ.

- للأسف، كل ما ذكرناه للتو هو مجرد افتراضات.

لكن معاذ هز رأسه رافضًا، ثم قال بثقة:

- لا، أنا لم أبحث في الجرائم لأن الأمر كما قلت، من الصعب إثباتها، لكنّ هناك أمورًا أخرى من السهل العثور عليها؛ لذا فعلت مثلما فعل المرحوم نادر، عدت إلى القضية الرئيسية، وطرحت السؤال الفائز حول أكثر شخص استفاد من العملية برمتها، ليس الأمر بهذه الصعوبة إذا عرفت أين تبحث.

قال ماجد باهتمام:

- هل يمكن أن توضح لي أكثر؟

- لقد أسس أشرف شركة استيراد، وبرأس مال لا بأس به.

- صحيح، لقد عرض عليَّ العمل معه، ولكنني رفضت رفضًا باتًّا، وقتها كانت شكوكي لا تزال في مهدها.

- أعتقد أن هذه الشركة هي مجرد غطاء، عملية غسيل أموال، تتبَّع المال وستعرف الحقيقة، الزيادة التي طرأت على رصيده، الحوالات المالية، اتصالاته، استخدام الأسلوب نفسه الذي استخدمه أشرف للإيقاع بالأشخاص المساكين الذين وُجِّهت لهم تهمة الخيانة، لكن هذه المرة، فإن جميع الوثائق ستكون حقيقية وليست مزيفة، هل تريد أن تعرف ما الذي توصلت إليه؟

ثم أردف من دون انتظار:

- أشرف كان يهرب الأسلحة ويبيعها للإرهابيين.

سأل ماجد من بين أفكاره:

- لكن هذا قد لا يكون كافيًا لإدانته.

- ممكن، ولكنه سيكون كافيًا ليُفتح تحقيقًا بشأنه، وعندها سيكون من السهل توصيل النقاط ببعضها بعضًا، وإذا ما حدث هذا، فإن سقوطه سيكون مسألة وقت.

التزم ماجد الصمت لوهلة وهو يفكر، ثم قال كأنه يعلن عن حقيقة لا جدال فيها.

- أشرف سيقتلك لمجرد التسلية فقط.

- حسنًا، لا أنكر أنني أشعر بالخوف، لكنني سأسعى جاهدًا لكشف الحقيقة، أنا مدين بذلك لصديقي على الأقل.

20

المشهد

مساحة متوسطة الحجم، جدران خشبية ونافذة ذات شكل دائري تطل على البحر، سرير لا يتسع سوى لفردٍ واحد، وطاولة مكتب قديمة عليها جهاز راديو صغير يعمل بالبطاريات، صندوق كرتوني بداخله الكثير من أوراق الصحف والمجلات، رف خشبي معلق على الجدار رتبت فوقه مجموعة من التحف والتماثيل الخشبية الصغيرة بأشكال مختلفة، قنديل عتيق ومزخرف معلق على أحد الجوانب ليشكل مصدر الإضاءة الوحيد في المكان، ورجلان أحدهما بساق واحدة انكبَّا على تفحص مجموعة من الأوراق فوق سطح الطاولة.

رجل ثالث تسلل من الباب من دون أن يصدر أيَّ صوت ومن دون أن يشعر به أيٌّ من الرجلين الآخرين. وقف ساكنا للحظة ليتأمل خصميه، ثم أعلن وجوده بابتسامة سوداء، وقال:

- أكره أن أقطع عليكما هذا الاجتماع اللطيف.

التفت كلا الرجلين باتجاه أشرف الذي كان يقف عند الباب، بملابس سوداء ووجه مصبوغ باللون الأسود بطريقة أخفت الكثير من معالمه، في حين كانت عيناه مشعتين مثل بركان.

تراجع معاذ إلى الخلف مذعورًا في حين بقي ماجد ثابتًا، لم تكن هذه المرة الأولى التي يرى بها وجه الشيطان، وإن كان يدرك جيدًا أنه في هذه المرة لن يكون في صفّه، قال معلقًا:

- ما زلتَ تتنكر مثل الأيام الخوالي؟

ابتسم أشرف، قال بنبرة فيها الكثير من الرهبة:

- تلك كانت أفضل أيامي على الإطلاق، لقد قضينا على الكثير من الأشرار.

- حضرت في وقت أسرع من المتوقع.

ابتسم أشرف، لكن ابتسامته بدت أقرب إلى تكشيرة، قال بصوت هادئ هذه المرة:

- لا يا صديقي، لا تقُل لي إنك لم تعد تثق بقدراتي.

سار باتجاه القنديل الذي كان معلقًا بقرب الباب، تحسسه بيديه حتى عثر على ضالته، أداة تنصُّت صغيرة كانت تختبئ خلف إحدى الزوايا الخشبية للقنديل، أخرجها ورفعها إلى الأعلى لتصبح مرئية، ثم قال متهكمًا:

– أبقِ أعداءك بالقرب منك، وأبقِ أصدقاءك أقرب، أظن بأن هذه المقولة هي الأقرب للصحة.

ضغط ماجد على أسنانه، دمدم بغضب:

– بالطبع، كان يجب أن أتوقع هذا، الخيانة تسري في دمك.

– ليست خيانة يا صديقي، هو مجرد حرص لا أكثر.

– كان عليَّ أن أتوقع ذلك، كيف عميت عن الحقيقة كل هذا الوقت؟

كان معاذ يقف ساكنًا طوال الوقت، في حين كانت عيناه تتلفتان في كل الاتجاهات بحثًا عن أيِّ مهرب. قال أشرف وهو يقترب خطوة إضافية:

– لماذا لم تقبل عرضي؟ كان يمكن لحياتك أن تتغير بدلًا من أن تضيعها في الرثاء لنفسك.

– الموت عندي أهون من أن أعمل مع خائن مثلك.

– تنعتني بالخائن مجددًا، مع أنني من حيث أقف الآن، يمكن أن أطلق عليك الوصف نفسه.

ثم وجه نظرة نارية باتجاه معاذ وهو يقول:

– متى أصبحنا نشي ببعضنا بعضًا أمام الصحفيين الأوغاد؟

قال معاذ بنبرة مترددة:

– أشرف، لقد انتهى كل شيء، من الأفضل لك أن تُسلِّم نفسك.

لكن أشرف قابله بضحكة باردة، ثم قال:

– أنت مُحق، لقد انتهى كل شيء، لكن ليس بالنسبة إليَّ، أنا لا أزال في بداية الطريق نحو القمة.

قال ماجد بغضب:

– القمة التي زينتها بدماء أشخاص أبرياء، كيف يمكن أن تقوم بشيء مماثل؟ تخون بلادك التي أقسمت على حمايتها، تضحي بأرواح أشخاص لا ذنب لهم، كل هذا...

ثم ألقى بالأوراق التي كان يحملها في يده سلفًا وهو يقول:

– كل هذا من أجل حفنة نقود، لهذا السبب خنتنا، وثُمّت خنت صفوت.

العبارة الأخيرة أثارت حفيظة أشرف بدرجة كبيرة، صاح بانفعال:

– أنا من انتقم لصفوت في حين اكتفيت أنت بالجلوس هنا والرثاء لساقك المقطوعة.

لكنه سرعان ما استعاد هدوءه وتركيزه، لن يسمح للانفعال بأن يشتته عما عزم عليه. فتح غطاء القنديل وسكب الوقود على الأرض وهو يقول:

- سيبدو الأمر كحادث، ستغادران بأقل قدر من الضوضاء.

هتف معاذ بذعر:

- أنت لن تقتلنا بهذه السهولة، لن تفلت بفعلتك.

قال أشرف وهو يضع القنديل بعيدًا ويخرج قداحته من جيبه:

- سنرى بهذا الشأن.

عند هذه اللحظة أدرك معاذ بأن الموت صار قريبًا جدًّا، ولم يكن يملك سوى أن يدافع عن نفسه، اندفع فجأة باتجاه أشرف في محاولة لُتعِيقه، لكن الأخير عاجله بضربة خاطفة من قدمه طرحته أرضًا ليغيب عن الوعي فورًا، لكن ماجد استغل الفرصة استغلالًا أفضل، استند على قدمه الواحدة وقفز على أشرف وتعلق به من رقبته.

كانت هذه فرصته الوحيدة، أن يحول بين غريمه والأكسجين، أن يشدد الخناق على أشرف إلى أن يضعف جسده ويستسلم، أشرف مجرد إنسان لا أكثر ولا أقل، اتسعت ابتسامة ماجد وهو يضغط بذراعيه أكثر، صحيح أنه فقدَ إحدى ساقيه لكنّ لديه ذراعين يمكن أن يُجهِز بهما على حياة أيِّ رجل، سنوات عديدة في التمرين المكثف لعضلات يديه تشهد له بذلك.

لقد صار قريبًا جدًّا، هكذا حدَّث نفسه. ازداد ارتياحه حين لاحظ أن حركة غريمه صارت أكثر بُطْئًا، ومقاومته أقل. كان على وشك أن يتنفس الصعداء ويعلن انتصاره، قبل أن يتنبه متأخرًا جدًّا إلى أنه وقع في الفخ الذي نُصِب له.

لمح ذراع أشرف وهي تتحرك من أحد الجانبين، حاول أن يتجنب الضربة لكنه لم يفلح.

شعر بوخزة في عنقه دفعته إلى أن يرخي يديه، وإن تمكن من إزالة الإبرة سريعًا ليتجنب دخول المزيد من السائل المسموم في دمائه، استغل أشرف هذه الفرصة، استدار بسرعة ووجه له ضربة بقدمه أسقطته أرضًا، ارتطم رأسه بالأرض بشدة، وبدأت الدماء تسيل منه، لكنه ظل واعيًا. أطلق أشرف زفرة طويلة المدى، ثم قال معلقًا:

- ما زلتَ قويًّا كما عهدتك.

- وأنت ما زلتَ تكسب معاركك الحاسمة بالغدر والخيانة.

راقبه أشرف بصمت في حين كان يتحسس رقبته ويستعيد وتيرة أنفاسه، ثم قال وهو يشير إلى جسد معاذ الذي كان غائبًا عن الوعي:

- هذه الإبرة كانت مخصصة لصديقك، كان لديَّ أمل في أن نظل أصدقاء.

أطلق ماجد ضحكة متقطعة الأوصال وهو يحاول بصعوبة أن يسند ظهره إلى الجدار الخشبي من خلفه:

- أُفضِّل الموت على ذلك، حرفيًّا.

بقي أشرف يتأمله لوهلة، ثم قرر ألا يضيع المزيد من الوقت، تناول قطعة قماش صغيرة تُستخدم للتنظيف كانت موضوعة على المنضدة بجانبه، أشعلها ثم رماها فوق الوقود المسكوب على الأرض. كتلة لهب تشكلت سريعًا جدًّا، مثل وحش ضار يشعر بالجوع. قال ماجد الذي كان يجاهد ليظل مركزًا قدر الإمكان:

- لن تنجو بفعلتك.

- أظن أنني قد نجوت سلفًا.

- لا، أنت نجوت مؤقتًا، لكننا سنلتقي مجددًا.

ثم أردف موضحًا:

- ليس في هذه الدنيا، وإنما في الآخرة.

أطلق أشرف ضحكة ساخرة قبل أن يقول:

- لا يا صديقي، لا أظن بأننا سنلتقي مطلقًا.

ثم اختفى سريعًا مثلما ظهر. زحف ماجد باتجاه معاذ الذي كان لا يزال غائبًا عن الوعي في حين كانت ألسنة اللهب تشق طريقها إليه سريعًا، أخذ يلكزه بقدمه الوحيدة بكل ما تبقى له من قوة وهو يهتف بصوت بدأ الوهن يتسلل إليه.

فتح معاذ عينيه بتثاقل، كان لا يزال غير قادر على استيعاب مكان وجوده أو ماهية الصوت الذي كان يهتف باسمه حين بدأ يشعر بألم مبرح يشتعل في أحد جانبي وجهه، ألم طاغٍ دفعه إلى الصراخ وهو يحاول الوقوف، تبين له لاحقًا أن نصف وجهه كان يحترق، أخذ يصفع نفسه بهستيرية حتى تمكن من إخماده. قال ماجد بصوت مُحشرج:

- اهرب بسرعة.

لم يكن معاذ قادرًا على التفكير بطريقة سليمة، انتابه الهلع وهو يشاهد النيران التي انتشرت سريعًا لتقطع عليهما طريق الخروج، خوفه من الموت تجاوز آلام وجهه

الصارخة.

– النافذة، اقفز من النافذة بسرعة.

أطاعه معاذ كالمسحور، صعد على الطاولة وحشر جسده في الفتحة الضيقة بدءًا بقدميه وانتهاء برأسه، ثم تنبه أخيرًا إلى الرجل الذي كان لا يزال طريح الأرض، مد له يده وهو يقول:

– تعال بسرعة.

قال ماجد:

– اذهب أنت، أنا لن أنجو، السم بدأ يسري في عروقي.

لم يفهم ما قاله في البداية ولكنه استوعبه لاحقًا، لقد تمكن أشرف منه في حين كان غائبًا عن الوعي. ألقى عليه نظرة وداع أخيرة، سيكون لديه الكثير من الوقت ليلوم نفسه على توريط هذا الرجل في هذا الأمر، ووقتًا أكثر ليشعر بالامتنان لأن الرجل أنقذ حياته للتو، وإلا لكان قد تحول إلى كتلة متفحمة بحلول هذا الوقت.

لحظات قليلة مضت، راقب خلالها ماجد وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، والنيران وهي تقترب منه بسرعة لتأكل جسده الذي فارقته الروح قبل أن يقفز في الماء بحثًا عن النجاة. الآن يعلم أن حياته لن تعود كسابق عهدها أبدًا، سيقضي سنواته التالية في اختباء مستمر. لقد مات من قبل أن يموت.

21

المشهد

ليلة شتوية معتدلة البرودة، شارع تجاري متوسط الحال، تراصت على جانبيه محال تجارية صغيرة، والكثير من الأرجل التي تروح وتجيء فوق الرصيف، موظفون عائدون من أعمالهم أو متسكعون يقطعون الوقت أو فتيات يتفحصن فاترينات المحلات بحثًا عن قطعة ملابس أو إكسسوار بسعر رخيص، في حين سارت الفتاة بخطوات منتظمة من دون أن تولي انتباهًا لمظاهر الحياة التي تدور من حولها.

وقفت لينا أمام بوابة البنك المغلقة، وسارت باتجاه جهاز الصراف الآلي، أخرجت البطاقة ووضعتها في المكان المخصص ثم ضغطت على الرقم السري، انتظرت بترقب في حين كانت الآلة تعد النقود، تناولتها ثم تأكدت من وضعها في حقيبة يدها قبل أن تتابع سيرها وهي تقبض على الحقيبة بحرص شديد، تعلم جيدًا أن اللصوص يهاجمون في الأوقات التي لا يتوقعهم فيها أحد، وتعلم أن ما يفقده المرء لا يمكن استرجاعه أبدًا؛ لذا ينبغي لها أن تكون متيقظة، تقبض على حقيبتها جيدًا في حين أن رذاذ الفلفل الذي تخفيه في جيب معطفها على أتم الاستعداد للعمل.

تابعت سيرها في الشارع المُضاء حتى دخلت حيًّا سكنيًّا أبنيته متواضعة الهيئة، بدأت الإنارة تنخفض تدريجيًّا بعد أن اختفت واجهات المحلات، ولم يعد لديها سوى قمر شحيح ولمبات بالكاد تضيء على نفسها، وعند الزقاق الذي يفضي إلى مسكنها، لم يعد هناك نور ولا بشر.

لم تُبطئ من سرعتها ولم تزِد منها، لكن يدها استعدت بالسلاح، وأذنها ظلت متأهبة لالتقاط أيِّ تغيير في حركة الخطوات التي كانت تسير خلفها، إذا كان ملاحقها ينوي سرقتها فإنه سيفعلها الآن. لكنها على أتم الاستعداد.

بدأت بعدها تفكر في أنها ربما تكون قد بالغت قليلًا، فقد خرجت من قلب العتمة ودلفت إلى مدخل العمارة من دون أن يقدم مطاردها على ارتكاب أيِّ فعل مشبوه، لكن خطواته لا تزال تتهادى خلفها، وحتى حينما دخلت إلى المبنى ظلت تلاحقها.

صعدت السلالم القديمة ووقع خطواته يصدح خلفها، وجدت الفرصة لتنظر بطرف عين إلى الأسفل، كان رجلًا يخفي جسده داخل معطف طويل وواسع، ويخفي أجزاء من وجهه بوشاح أسود، ليس واحدًا من سكان العمارة المعروفين، بدا لها نموذجًا معتادًا لشخص مترصد.

الشقة التي كانت تسكنها مع جدتها التي تعاني أمراض الشيخوخة كانت تقع في الطابق الثالث، في الطرف الأبعد من السلالم، سارت في الممر وتلكأت أمام الباب، الآن لم

يعد أمام مطاردها إلا أن يطرق الباب المقابل أو أن يكشف نفسه.

أرهفت السمع، لكن مطاردها لم يتوقف عند باب الشقة المجاورة واستمرت خطواته نحو بابها، الآن أصبحت متأكدة من أنها المقصودة.

حينما شعرت باقترابه منها، استدارت بسرعة وعبوة الرذاذ الحارق في يدها، فوجئ الرجل وتراجع إلى الخلف وهو يمد يديه أمامه ليحمي بهما وجهه.

- لحظة واحدة، انتظري أرجوك.

قالت وهي تقبض بيدها الأخرى على حقيبتها كأنها قطعة من روحها:

- ليس معي نقود.

- يا ابنتي، لقد أسأتِ الفهم، أنا لست لصًّا، ولا نية لي بأخذ النقود منكِ.

لكن كلامه المطمئن ولهجته الأبوية لم تكن كافية لتتخلى عن حذرها، بقيت العلبة الحارقة بانتظار الأوامر من سبابتها.

- ماذا تريد إذن؟

- لينا، ألا تذكرينني؟ قالها وهو يبعد يديه عن وجهه.

نظرت إليه بتمعن، لكنها لم تتمكن من التعرف عليه، سألت:

- من أنت؟

- انظري لي جيدًا، لقد تقابلنا من قبل، وقتها كنتِ صغيرة جدًّا، وأنا لم أكن بوجه نصف مشوَّه.

كشف اللثام الذي كان يغطي جانب وجهه، شعرت الفتاة بالاشمئزاز من منظر الجلد المشوه على خده الأيمن، الذي ذكرها بفوبيا الحريق التي تعانيها، تراجعت إلى الخلف بحركة تلقائية، في حين استدرك الرجل وهو يكاد يبتسم:

- لا تخافي مني.

- لست خائفة، لكنني لا أتذكرك.

أومأ موافقًا، ثم تابع:

- معك حق، لقد تغيرتُ كثيرًا، وأنتِ أيضًا، صرتِ شابة كبيرة، على أيِّ حال، أنا معاذ، صديق قديم لوالدك المرحوم.

تذكرته الآن، أخفضت سلاحها وهي تقول:

- أجل، تذكرتك، لقد مر وقت طويل.

قال بأسى:

- نعم يا لينا، مر وقت طويل فعلًا.

- أذكرك جيدًا، كنت تواظب على زيارتنا حينما كنت صغيرة ثم انقطعت عنا فجأة.

- أعتذر يا صغيرتي، لقد كنت مرغمًا على الاختفاء، كنت مهددًا بالقتل، ولا يزال هنالك أشرار في إثري.

اتسعت عيناها من وقع المفاجأة، قالت:

- أشخاص يريدون قتلك؟ لماذا؟

- بسبب حادثة والدك.

ازدادت عيناها اتساعًا، في حين بدأ قلبها يدق بسرعة أكبر.

- والدي؟ ما دخل والدي في تعرضك للقتل؟

تنهد ثم قال:

- هذا هو السبب الذي جئت من أجله.

- ما زلتُ لا أفهم، تعال إلى الداخل، سأعد لك كوب شاي ونتكلم.

- لا، لا داعي، لن أطيل المكوث.

لكنها لم تكن ترغب في أن يغادر بهذه السرعة، الرجل الواقف أمامها بإمكانه أن يضع الكثير من النقاط فوق الحروف التي تاهت من ماضيها، لديها الكثير من الأسئلة التي أرَّقتها منذ أن كانت صغيرة إلى الحد الذي أفسد عليها سير حياتها، وهذا الرجل يملك قدرًا وافيًا من الإجابات. قالت بإلحاح وهي تحرك المفتاح في ثقب الباب:

- تفضل أرجوك، بإمكاننا أن نتحدث براحة أكبر في الداخل، هنالك الكثير من الأشياء التي أرغب في معرفتها منك.

لكنه كان مصرًّا بدوره، قال:

- آسف يا لينا، ليس بإمكاني المكوث أكثر، من الأفضل لكلينا أن أغادر سريعًا.

- لكن...

قاطعها:

- لا تقلقي، أعرف ما الذي يدور في رأسك، أعرف أنك تائهة، وأنك عانيت كثيرًا، لهذا أحضرت لك هذه، أنتِ أحق شخص بالاطلاع عليها.

بالرغم من خلو المكان إلا منهما، فإنه اختلس نظرة حذرة دار بها حول نفسه، ثم دس كف يده بداخل المعطف، أخرج قطعة فلاش ميموري صغيرة الحجم وناولها إياها. نظرت إليه وسألت:

- ماذا يوجد فيها؟

- الخبر الصحفي الذي لم أتمكن من نشره قط.

قالت بارتياب:

- وموت والديَّ له علاقة بهذا الخبر؟

- ليس والداك فقط، الكثير من الأبرياء فقدوا حيواتهم، جنود شجعان قضوا في عمل إرهابي، وأشخاص اتُّهموا بالخيانة زورًا وأُعدِموا، وآخرون مثل والدك الذي كان واحدًا من الأشخاص الذين حاولوا أن يكشفوا الحقيقة، للأسف لقد دفع حياته ثمنًا لذلك.

ترقرقت عيناها بدموع جاءت من حيث لا تدري، قالت هامسة:

- إذن والداي قد تعرضا للقتل فعلًا، والحريق لم يكن حادثًا مثلما قال لي الجميع.

قال مؤكدًا:

- نعم يا لينا، أنتِ كنتِ محقة من البداية.

- ولكن، ماذا عن الشيطان؟ الكيان ذو العينين الحمراوين.

- لم يكن شيطانًا يا لينا، لقد كان إنسانًا من لحم ودم.

- إنسان؟

- أجل يا لينا، لكنك كنتِ صغيرة جدًّا لتميزي الفرق، وإن كان لا يختلف كثيرًا عن الشياطين.

تلفت حوله مجددًا، ثم قال وهو يعيد إحكام الوشاح حول وجهه:

- عليَّ أن أنصرف الآن قبل أن يرانا أحد، لقد أصبحتِ تعرفين الحقيقة، ولك أن تتصرفي بالطريقة التي تحلو لكِ، لكن أرجوك كوني حذرة، هم لا يعرفون عنكِ أيَّ شيء، إنهم يلاحقونني أنا؛ لذا ستكونين في أمان، فقط لا تُقْدِمي على أيِّ فعل متهور، وداعًا.

- انتظر لحظة، لِمَ لا تدخل قليلًا؟

- لا أستطيع، يجب علينا ألا نلتقي مرة أخرى، وداعًا.

ثم غاص في عتمة الدرج قبل أن تتمكن من إيقافه.

22

مضت بضع ثوانٍ، مر خلالها المشهد من أمام عينيه السارحتين قبل أن يتشكل فيهما حقد طاغٍ. اتسعت حدقتاه، وجَّه إلى غريمته نظرة تُنذِر بالرعود.

- أنتِ؟

قال كلمته الأخيرة بصوت أقرب إلى الفحيح، في حين اكتفت لينا بأن وجهت إليه نظرة مستفهمة، ثم قرنت ردة فعلها بالسؤال:

- يبدو لي بأنك تذكرت شيئًا مُهمًّا؟

دمدم بحنق:

- أيتها الحقيرة، أنتِ كنتِ تحاولين قتلي.

حينها تحول وجهها بدوره إلى العدائية المطلقة، قالت:

- أنت تستحق أن تموت ألف مرة.

المشهد

بهو واسع، أثاث في غاية الفخامة يتناثر في كل مكان، تحف وتماثيل وأباجورات وأرائك وسجاد وثير، وعلى الحائط شاشة كبيرة الحجم تعرض فيلمًا عربيًّا، وفي منتصف الردهة رجل خمسيني ببنية قوية يذرع المكان ذهابًا وإيابًا وهو يتحدث بنبرة غاضبة عبر الهاتف. كان غاضبا للغاية، اشتدت يده على هاتفه الجوال. صرخ مجددًا:

- لا يا ياسين، أنت لم تعد قادرًا على القيام بعملك على ما يبدو، متى أصبحت ضعيفًا هكذا؟

كان بطل الفيلم يقف في منتصف الحارة بقميص ممزق والدماء الزائفة تلتصق بوجهه وصدره، ويصرخ طالبًا من أعدائه مواجهته. صاح أشرف:

- افعل ما أخبرتك به بالحرف الواحد، أريد أن أنتهي من هذا الأمر قبل أن تعود عائلتي من السفر.

سكت قليلًا ليستمع إلى محدثه، عادت اللكمات والركلات المتبادلة بين البطل وجماعة الأشرار تملأ الشاشة، لكنه أنهى العراك حين تناول جهاز التحكم وأطفأ الشاشة، ثم أطلق زفرة فيها الكثير من الانزعاج.

- اسمع يا ياسين، التهديد لن يجدي معه نفعًا، سيكون بحاجة إلى حافز يدفعه إلى الكلام، تعال فورًا، سأخبرك بما ينبغي القيام به، لا بد من أن هناك من يهتم لأمره.

لم ينتظر سماع ما سيقوله محدثه على الطرف الآخر، أغلق الخط فورًا وهو يشتم ويتوعد بصوت غير مفهوم، بدأ يشعر بأن درجة حرارة المكان قد ارتفعت بغرابة بالرغم من أن أجهزة التكييف تعمل بأقصى طاقة لها، أمسك بياقة قميصه وفك الزر العلوي ليخفف من قبضتها المحكمة حول عنقه، زفر مجددًا بصوت أكثر ارتفاعًا، حاول أن يتذكر فيما إذا كان قد تناول أدويته هذا الصباح أم لا. ثم تنبهت حواسه فجأة.

أذنه المتمرسة التي لم تكن الحياة المرفهة ولا التقدم في السن قد أثَّرا في كفاءتها التقطت صوت وقع أقدام تجاهد لتظل غير مسموعة، استدار إلى الخلف بحركة سريعة، ولمعت فوهة المسدس في وجهه. ركز النظر أكثر، كان وجه الفتاة مألوفًا لديه.

قال:

- أنتِ بائعة العرقسوس التي كانت تقف بعربتها في الخارج؟

ابتسمت لينا، قالت متهكمة:

- بشحمها ولحمها.

عليه أن يبتلع صدمته سريعًا، عليه أن يفكر، أن يركز.

- كيف سمح لكِ أولئك الأغبياء بالدخول؟

- رجالك الآن في غفوة اضطرارية بعد أن استمتعوا بالشراب البارد، لقد كانوا مثلما وصفتهم تمامًا، يتناولون أيَّ شيء يُقدَّم لهم بنهم.

حدَّق إلى فوهة السلاح وهو يقول بنبرة هادئة:

- وما الذي تريدينه مني إذن؟

لمعت عينا لينا.

- لقد كنتُ أتحين الفرصة كي أقتلك، وها هي الفرصة الآن قد أصبحت مواتية.

بالرغم من إعلانها الصريح، فقد ظل ثابتًا ورابط الجأش، لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يحدق فيها بوقاحة إلى عيني موت مرتقب، انتظر قليلًا ليحاول تقييم الموقف، ثم تنفس الصعداء حينما تأخرت الرصاصة، فهذا يعني أن الفتاة اليافعة التي تقف أمامه ليست قاتلًا مأجورًا أو متمرسًا، وأن لديه فرصة كبيرة للنجاة. مط شفتيه وهز رأسه بحركة بطيئة كتعبير عن استهانته بقدرات خصمته الصغيرة.

- منذ متى يرسلون الأطفال لتنفيذ عمليات القتل؟

ارتفع حاجباها إلى الأعلى.

– أتراني طفلة حقًّا؟ هل يفترض بي أن أشعر بالإطراء أم الإهانة؟

تأملها مليًّا وهو يحرك عينيه من الأعلى إلى الأسفل.

فتاة نحيفة وتلبس ملابس واسعة أقرب إلى ملابس الرجال وتغطي شعرها ورقبتها بكوفية سوداء، ووجهها خالٍ من مساحيق التجميل، لكنها لم تكن مخيفة أبدًّا.

قال مؤكدًا:

– أنتِ مجرد هاوية.

– ألست خائفًا من الفضيحة؟

– فضيحة؟

– طبعًا، رجل بمكانتك وحجمك تأتي نهايته على يد فتاة هاوية.

رفع أكتافه إلى الأعلى، ثم قال بنبرته الهادئة والواثقة:

– لن تكون هنالك أيُّ فضيحة، ما زلت أستبعد أن تكوني قادرة على القتل.

– تبدو متأكدًا من ذلك.

ابتسم بِخُيَلاء لا يتناسب مع الموقف.

– أنا متأكد جدًّا.

لمع الغضب والاستفزاز في عيني الفتاة، اشتدت يدها القابضة على المسدس في حين تيقن أشرف من فكرته أكثر، فقد كانت تواجه صراعًا داخليًّا، كانت مترددة؛ لذا آثر أن يغيِّر إستراتيجيته. رفع يديه إلى الأعلى وهو يقول:

– حسنًا، لستِ قاتلة وهذا أمر مفروغ منه، لكنكِ مدفوعة إلى الحضور إلى هنا وإشهار هذا السلاح في وجهي لغرض ما، هيا، أخبريني ما الأمر؟

ظلت لينا صامتة من دون أن ترفع عينيها عنه، عقلها كان يضج بالكثير من الأفكار والتساؤلات. لقد فكرت بالأمر مليًّا وخططت له بعناية شديدة، الغضب، الألم، الرغبة في الانتقام، كل هذه المشاعر التي كانت واضحة المعالم تحولت إلى أشباح باهتة، السنوات التي قضت أيامها ولياليها في معاناة دائمة. لماذا تشعر الآن بالحيرة والتردد؟

– ها، ما الأمر؟ هل تريدين نقودًا؟ لديَّ الكثير منها.

عبارته منحتها الفرصة لتصرف ارتباك أفكارها باتجاه آخر، تمكنت من رسم ابتسامة ساخرة على وجهها.

– نقود؟ هل تظن بأنني هنا من أجل النقود؟

ابتسم بدوره، تقدم خطوة باتجاهها.

- لا أستطيع أن أفكر في سبب آخر، فأنا لا أعرفك ولم يسبق لي أن التقيتكِ من قبل، كنت سأتذكر وجهكِ لو كنتُ أسأت لك من قبل.

لمعت عيناها مجددًا، قالت:

- أنت متأكد من أنك لا تتذكر وجهي؟

تظاهر بأنه يفكر، ثم قال:

- أعتذر، لا يخطر ببالي أيُّ شيء، ربما يمكنك أن تخبريني بالمشكلة التي لديك، وسأحاول أن أساعدك على حلها.

قالت بحزم:

- المشكلة التي لديَّ هي أنك لا تزال على قيد الحياة، لأن أمثالك يجب أن يموتوا.

رفع يديه إلى الأعلى قليلًا دلالة على عدم الفهم، ثم قال:

- ربما بإمكانك أن توضحي لي ما المشكلة، الناس لا يتسللون إلى بيوت الآخرين ويطلقون عليهم الرصاص من دون مبرر.

تنهدت، قاومت دموعها التي كانت توشك أن تسيل، ثم قالت:

- لقد قتلت والديَّ، ألا يبدو لك هذا سببًا كافيًا؟

لم يتظاهر هذه المرة، فقد بدا مصدومًا فعلًا.

- أنا قتلت والديك؟ لا بد من أنك مخطئة.

- لقد قتلتهما وأحرقت المنزل بجثتيهما، وكنتُ على وشك أن أموت أنا أيضًا.

- لحظة واحدة...

توقد المشهد في رأسه فجأة. تأمل ملامحها جيدًا، قال وقد ضاقت عيناه:

- أنتِ تلك الفتاة الصغيرة.

ظلت صامتة، تابع قائلًا:

- أنتِ التي كنتِ في ذلك المنزل قبل سنوات طويلة، البيت الذي احترق، أنتِ الطفلة التي كانت تحاول أن تقفز من النافذة.

ازدردت لعابها. فتابع:

- لقد أنقذتك.

هتفت محتجة:

– أنت لم تكن تريد إنقاذي، كنتَ ستعيدني إلى الداخل لأموت حرقًا لولا حضور الناس وتجمعهم في الشارع، فوجدتَ نفسك مضطرًّا إلى أن تلعب دور البطل.

أطلق أشرف ضحكة عالية، لكنها كانت ضحكة انفعالية وتخفي الكثير من التوتر.

– هل هذه مزحة؟ هل هذا هو جزاء الإحسان؟ أنتِ مدينة لي بحياتك، لولا وجودي بالمصادفة أمام ذلك البيت لكنتِ الآن في عداد الأموات.

– لقد كنتَ أنت، بثيابك السوداء والعينين الحمراوين، كنتُ أصغر سِنًّا من أن أميز الحقيقة من الخيال، وأنا التي كنت أعتقد طيلة الوقت بأنك مجرد شيطان لا أكثر، ولم أتخيل بأني صادفت ما هو أكثر شرًّا بمراحل.

أطلق ضحكة أخرى لكنها لم تدُم طويلًا، قال:

– هل تَعِينَ ما تقولينه حقًّا؟

اقترب منها خطوة إضافية، قال:

– لم أقتل والديكِ، أنا أنقذت حياتكِ.

– توقف مكانك.

– وإلا ماذا؟

مرقت الرصاصة على بعد إنشات قليلة من رأسه ودفعته إلى أن يتجمد في مكانه، كما لو أنه فوجئ بأن المسدس الذي تحمله في يدها يمكن أن يطلق رصاصًا قاتلًا. قال بصوت بدأت تخونه الثقة:

– تعقلي يا بنت، ما زلتِ صغيرة، لا داعي لأن تُضحي بحياتك لأجل لحظة طائشة.

قالت باستياء:

– أنت قتلتني منذ زمن بعيد جدًّا، لم تترك لي شيئًا لأخاف عليه.

حينها فقط أدرك بأنه كان قد أساء التقدير، لأن الفتاة التي أمامه ليس لديها ما تخسره، هذا التصور الجديد تسبب في إرباكه. صوبت لينا بين عينيه مباشرة.

بدت أوصاله ترتعد فجأة دون أن يتمكن من إيقافها، عليه أن يستميلها بأيِّ طريقة، قال متوسلًا:

– اسمعي يا ابنتي، أنا رجل ثري جدًّا، سأدفع لك ما تريدينه.

اتسعت عيناها دهشة واحتقارًا، قالت:

– لا تنادِني بابنتك، سأقتل نفسي لو كان أبي وغدًا مثلك.

تجاهل ما قالته له للتو، وقال:

– أرجوكِ، سأعوضك عن كل شيء.

لكنها لم تكن ترغب إلا في أمر واحد فقط.

– وداعًا، شيطان آخر لن يفتقد العالم وجوده.

– انتظري أرجوكِ.

إلا أنها لم تتراجع، وجمود ملامحها وثبات يدها جعلته على يقين من أنها النهاية. لم يفكر يومًا في أنه سيموت فعلًا مثل بقية البشر، وها هو الموت يستعد لمغافلته، ليتركه بلا حيلة، لينقض أركان بنيانه في لمحة بصر، أغمض عينيه وتخيل الرصاصة التي ستخرج من بيتها لتستقر في رأسه. لكن الرصاصة لم تأتِ.

حينما فتح عينيه مجددًا راوده الأمل، كانت الفتاة لا تزال تصوب سلاحها تجاهه ولكن الدموع التي كانت تفيض من عينيها بعثت في نفسه أملًا كان يظنه بعيد المنال.

قال برجاء:

– سأعوضك عن كل شيء، أقسم لكِ إنني سأفعل.

مسحت دموعها بكم قميصها الواسع، ثم قالت:

– العوض الوحيد الذي أرجوه هو أن أراك ميتًا، لكنني لن أفعلها، أتدري لماذا؟ لأنني أخاف إن قتلتك أن يغفر الله لك بعضًا من ذنوبك، لكنني سأدعك تعيش، وسأنتظر أن ينتقم الله لي ولكل شخص ظلمته.

«الله ينتقم لها، مخبولة حقًّا».

لكن الأهم هو إدراكه بأنه نجا بأعجوبة.

عادت أفكاره إلى مجاريها، كف جسده عن الارتعاش واستعاد الجزء الأكبر من رباطة جأشه المعهودة، فكر في أن أفضل حل هو أن يدعها تنتهي من الكلام دون أن يقول شيئًا من شأنه أن يحدث أثرًا عكسيًّا. قالت أخيرًا:

– سأتنازل لك عن هذه الجولة بمحض إرادتي، ما دُمت أضمن بأنني سأكسب المعركة بعد حين.

حينما ألقت كل ما في جعبتها من كلمات، استدارت استعدادًا للمغادرة.

الغبية... هذا ما كان يجول بخاطره في تلك اللحظة، تظن بأنها تعرفه جيدًا، في حين هي في الحقيقة لا تعرف عنه أيَّ شيء.

مثل أسد يستعد للانقضاض على فريسته الغافلة، اقترب منها بخفة ومن دون أن يصدر أيَّ صوت، إذا كان هنالك شخص يمتلك الخبرة في التسلل من خلف ظهور الآخرين دون أن يشعروا به فهو ذلك الشخص. يا لها من بلهاء، كيف تدير ظهرها له هكذا ببساطة؟

وصل إليها في لمحة بصر، يده اليسرى قبضت على يدها التي تحمل المسدس، طوَّق عنقها من الخلف بذراع يمنى عريضة لم يؤثر بها التقدم في السن، ذراع خبيرة ومتمرسة، وتعرف جيدًا كيف بإمكانها أن تنهي حياة من يقع فريسة لها.

فوجئت لينا بهذا الهجوم المباغت، حاولت أن تستخدم المسدس لكن تلك اليد كانت مشلولة تمامًا، حاولت أن تضرب رأسه بيدها الأخرى الطليقة، لكن ضرباتها لم يكن لها أيُّ تأثير، حاولت أن تخدش وجهه بأظفارها.. لكنها لم تتمكن من الوصول إليه، حاولت أن تحرك جسدها يمنة ويسرة كيفما اتفق لكن ذلك زاد من آلام رقبتها التي كانت تعتصر تحت وطأة ساعده، كماشة تضغط على عظامها الرقيقة حتى تكاد تسحقها، وذخيرتها من الهواء كانت تنفد شيئًا فشيئًا، حاولت أن تقاوم أكثر، لكن عقلها أرسل رسالته الأخيرة، مهما فعلتْ فإنها لن تتمكن من التخلص منه؛ لذا سيكون من الأفضل لها أن تستسلم.

تخلت يدها عن المسدس ليسقط على الأرض، وتخلت يدها الأخرى عن محاولة ضربه، عند هذه اللحظة فقط، شعرت بالسكينة التي سعت كثيرًا كي تعثر عليها. الآن يزول الألم، وتنتهي معاناتها.

23

أفلتت منه شهقة عالية، حدق إليها بعينين جمعتا ما بين الصدمة والاندهاش. ما اكتشفه للتو كان أكثر غرابة من أيِّ شيء شاهده في حياته، وهو الذي كان حبيس غرفة من دون أبواب. لاحظت التغيير الذي طرأ على وجهه، وجابهته بنظرة متحدية.

- كيف فعلتِها؟

- فعلتُ ماذا؟

قال بغضب يشوبه التوتر:

- لقد قتلتك بيدي، كيف لا تزالين على قيد الحياة؟

قالت ببساطة:

- كل ما تراه أو تدركه ليس بالضرورة أن يكون حقيقيًّا.

دمدم:

- كُفِّي عن العبث، لقد تركتك جثة هامدة في بهو منزلي، لقد سمعت عظام رقبتك وهي تتحطم.

ارتسمت على وجهها ابتسامة زادت من غيظه، صرخ باهتياج:

- أيتها اللعينة، أخبريني كيف فعلتِ كل هذا؟

- ربما أنك أخطأتَ واعتقدت بأنني ميتة، ولكنني لم أمت فعلًا، والدليل أنني أمامك الآن.

لكنه رفض هذه الفكرة بتاتًا.

- لقد كنتِ ميتة، لم تكن تلك المرة الأولى التي أزهق فيها روحًا، كيف عدتِ إلى الحياة؟

كانت مصرة على التلاعب به باستمتاع، قالت وهي لا تزال تبتسم:

- ربما أنني ميتة فعلًا وأنت تتوهم أنني موجودة معك الآن، مثلما توهمتُ أنا في البداية أن مَن قتل والديَّ كان شيطانًا قبل أن أكتشف لاحقًا أنه أنت، هل ترى كيف تلعب الأوهام دورًا مهمًا في تشكيل إدراكنا وذكرياتنا؟

- دعكِ من التفاهات، أخبريني الحقيقة.

– يستحسن أن تكتشف الأمر بنفسك مثلما حصل معي، لكنك لن تكون سعيدًا وقتها.

ثم اختفت الابتسامة الساخرة وحلت محلها الجدية، تابعت:

– عقابك سيكون وخيمًا جدًّا.

قال متهكمًا:

– عقابي، مَن الذي سيجرؤ على معاقبتي؟

– الذي خلقك.

هذه المرة استبدل بالغضب ضحكة مجلجلة، ثم قال:

– أيتها المخبولة، وهل هناك مَن مات وعاد بعد ذلك ليخبرنا إن كان هناك من انتقم منه بسبب إلحاده؟ ماذا لو مت الآن ولم أجد أيَّ إله؟

– حينها لن تخسر أيَّ شيء، لكن، ماذا لو أنك مت ووجدت؟

انقطعت ضحكته، وسرت رعدة خفيفة في جسده لم يعرف مصدرها، تمتم بحلق جاف:

– هراء.

لم تمضِ سوى ثوانٍ معدودة فقط حتى عاد المشهد السابق ليطوف في خلايا ذاكرته مجددًا، ليدرك أن ما اكتشفه قبل لحظات لم يكن كل شيء. لا يزال هنالك المزيد.

المشهد

بهو واسع، أثاث في غاية الفخامة يتناثر في كل مكان، تحف وتماثيل وأباجورات وأرائك وسجاد وثير، وعلى الحائط شاشة كبيرة الحجم ومطفأة، وفي منتصف الردهة يقف رجل خمسيني ببنية قوية تحيط ذراعه اليمنى برقبة فتاة نحيفة وشاخصة العينين، كانت الفتاة مستسلمة تمامًا ولا تبدي أيَّ مقاومة تذكر.

كانت قد أسلمت الروح منذ بعض الوقت، لكنه ظل قابضًا على عنقها بحنق، هذه الصغيرة الضعيفة أهانت كرامته إهانة لم يسبق لأحد أن قام بها من قبل، لا أعتى المجرمين ولا كبار رجال الدولة ومسؤوليها، لم يسبق لجسده أن ارتجف بهذه الطريقة أمام أيٍّ كان.

– الحقيرة...

تركها تتهاوى على الأرض قبل أن يتهاوى بدوره على أقرب أريكة منه وهو يلهث، لم يعرف ما الذي يحدث له تحديدًا في تلك اللحظة، كان منفعلًا انفعالًا مؤذيًا، لم يكن

متأكدًا مما إذا كانت حرارة الجو قد ارتفعت فجأة أم أن جسمه هو الذي كان في حالة غليان، العرق يسيل على رقبته ووجهه بغزارة، وقلبه ينبض بسرعة شديدة.

جسده خرج عن نطاق سيطرته وصار فريسة لهجمات أعداء غير مرئيين، كان يتألم، ويشعر بالاختناق، وبصره يزيغ، حلقه جف مثل صحراء قاحلة ولسانه نسي كيف يرتب الحروف، حاول أن يصرخ طالبًا النجدة، لكن صراخه لم يتعدَ حدود رأسه.

أخذ منه الأمر بعض الوقت ليدرك أنه كان يعاني نوبة قلبية، وأخذ منه وقتًا أكبر ليدرك أنه كان يحتضر. حاول أن يستجمع قواه ليقف على قدميه، لكن جسده ارتطم بالأرض مثل صخرة دون أن يملك من زمام أمره شيئًا. لقد انتهى.

- مستحيل!

أطلق صرخة فزع تردد صداها على الجدران الخانقة. نظر إليها وقال بصوت مرتعد:

- أنا ميت أيضًا!

ابتسامتها لم تستفزَّه هذه المرة، اكتشافه الجديد شغله عن التركيز في أيِّ شيء آخر، كان مذهولًا، ومرعوبًا، ومرتبكًا، وغير مصدق. وقف على قدميه، ومجددًا أخذ يتحسس وجهه وجسده ليتأكد من أن كل شيء في مكانه، حرك القيود ولَكَمَ الجدران، ضجة يحاول أن يثبت فيها خطأ ما شاهدته ذاكرته، في النهاية وجه انتباهه صوب الفتاة التي لم تكن قد تحركت من مكانها منذ وقت طويل، وقال بنبرة فيها الكثير من الوعيد:

- اسمعيني جيدًا، إذا لم تخبريني الآن ما هي اللعبة التي تمارسينها أنت ومعاونيك الذين يختبئون خلف الجدران، فإني أقسم بأنني سأجعلك تدفعين الثمن غاليًا.

ردت باللهجة المتهكمة ذاتها التي اعتنقتها منذ بعض الوقت:

- تقسم بماذا تحديدًا؟ أنت لا تؤمن بوجود إله بحسب علمي.

انفجر غاضبًا:

- أيتها اللعينة، كفي عن هذه الحماقة، أخبريني بالحقيقة.

- ما تفكر فيه صحيح، أنت في حالة إنكار لا أكثر.

هَدَر:

- كيف يُعقل أن يكون صحيحًا؟ أنتِ ميتة، أنا قتلتك بنفسي، ثم أُصبتُ بنوبة قلبية وتوفيتُ بعدك بدقيقة واحدة فقط، لكن كلينا الآن على قيد الحياة، كيف يمكن أن يكون هذا منطقيًّا؟

- أحقًّا لم تفهم بعد؟

- أفهم ماذا؟

توقفت عن الكلام للحظة تصاعد بها غليانه أكثر، صاح:

- أفهم ماذا؟

- نحن لسنا على قيد الحياة، كلانا ميت، منذ أن استيقظنا في هذا المكان ونحن كذلك.

- لكن...

لم يعد يعرف ما الذي يجب أن يقوله، كانت هنالك الكثير من التساؤلات التي تزاحمت بداخل رأسه في هذه اللحظة، لكن الضباب بدأ ينقشع تدريجيًّا.

كلانا الآن ميت.

من جديد، عاد وجه صفوت صديقه القديم ليرهق كاهل مخيلته.

24

المشهد

شقة قليلة الأثاث، ممر طويل يفضي إلى غرفة داخلية حيث يقف رجل يلبس ملابس سوداء وقناعًا صوفيًّا رفعه إلى أعلى رأسه ليكشف عن قسمات وجه ينضح بالشر، وبين يديه سلاح أوتوماتيكي يستعد لإطلاق نيرانه في أيِّ وقت.

اختبأ الرجل في إحدى الغرف البعيدة وانتظر إلى حين حدوث الانفجار، اهتزت الجدران من حوله لكنها بقيت في مكانها.

انتابه شعور عارم بالنشوة وهو يتخيل جثث الطواغيت التي تراكمت في الأسفل، أشلاؤهم الممزقة ودماؤهم التي سالت لتملأ الأرضية وتصبغ ما بقي صامدًا من جدران، انتابه فرح عارم وبدا مثل جندي حقق نصرًا مؤزرًا في ساحة معركة، الحبوب المخدرة التي تناولها هذا الصباح ليستعين بها على معركة اليوم أتت ثمارها ومنحته القوة والعزيمة التي كان ينشدها، والآن حان وقت القطاف.

فتح باب الغرفة وخرج منها بحذر وسلاحه الأوتوماتيكي مشرع أمامه، سار في الممر الفارغ بخطوات بطيئة، باب الشقة كان مفتوحًا ليكشف عن شيء يسير من مشهد الخراب الذي أرسى قواعده سريعًا في الخارج، ازداد شعوره بالانتشاء لدرجة أنه أطلق ضحكة عالية ارتج لها كامل جسده المهزوز، لكن ضحكته انقطعت فجأة قبل أن يصل إلى الباب حينما لمح خيط الدم القادم من الخارج ليرسم مسارًا رفيعًا على البلاط، بقي ساكنًا لوهلة كأن أيَّ خطوة إضافية ستؤدي إلى هلاكه، تمكن أخيرًا من استيعاب أن هناك شخصًا تسلل إلى داخل الغرفة الأقرب إلى الباب وقد ترك شيئًا من دمائه خلفه.

تحفزت خلاياه، واشتدت يده على السلاح، قطع الخطوتين اللتين تفصلانه عن باب الغرفة بهدوء، كان الباب مواربًا فرفسه بقدمه ليرتد إلى الخلف ويرتطم بالجدار، لكن شيئًا لم يحدث، وجَّه فوهة سلاحه إلى الغرفة وأطلق عدة رصاصات بعشوائية دون أن يغامر بالنظر، لكنه لم يتلقَّ أيَّ رد أيضًا، ثم انتابه شعور فجائي بالثقة بعد أن أوحى له دماغه بزوال أيِّ تهديد، أصبح متيقنًا من أن الغرفة فارغة أو أن من تمكن من الولوج إليها قد أصبح في عداد الأموات، أخذ نفسًا عميقًا يمتلئ زهوًا وانتعاشًا ثم خطا داخل الغرفة.

الطلقة التي تلقاها كانت سريعة جدًّا بحيث بقيت ملامح السعادة مرتسمة على وجهه وهو يتهاوى على الأرض وقد حفرت الرصاصة الوحيدة ثقبًا في منتصف جبهته.

أنزل صفوت سلاحه إلى الأسفل وعاد ليتكئ بظهره إلى الحائط ويطلق العنان لأنّات خافتة كان قد حبسها في اللحظات الماضية، الجرح القطعي الذي حفر علامة أعلى

خاصرته اليمنى لا يزال ينزف، شعر أن هنالك أجسامًا كثيرة اخترقت جسده بحيث لم يعد يعرف من أين عليه أن يشعر بالألم، لكن الألم كان أمرًا جيدًا في حالته، الألم كان يبقيه حيًّا، عقله لا يزال واعيًا، أعضاؤه الحيوية لا تزال تعمل بكفاءة، على ما يبدو أنه لم يُكتب له أن يموت هذا اليوم.

تحامل على نفسه ليقف، ثم ليسير إلى حيث باب الغرفة تاركًا الجثة وراءه، أذنه التي لا تزال مرهفة التقطت صوت حفيف أقدام قادمة من الخارج، اتكأ إلى الحائط القريب من الباب وسلاحه في وضعية الاستعداد وهو يقول في نفسه: «وغد آخر قادم إلى حتفه».

– صفوت، أنت هنا؟

الصوت الهامس كان مألوفًا إليه، انتابه شعور بارتياح تام دفعه إلى التخلي عن دفاعاته بالكامل، نزلت فوهة السلاح إلى الأسفل وهو يقول:

– أنا هنا، الوضع آمن.

خطا أشرف داخل الغرفة وهو يقول:

– لقد نجوت.

– الحمد لله على ذلك، ماذا عن البقية؟

قال أشرف بنبرة مجردة:

– للأسف، خمسة منا على الأقل لقوا حتفهم.

سأل صفوت بلهفة:

– ماذا عن ماجد؟

– إصابته بليغة، لا أعلم فيما إذا كان سينجو.

أطلق صفوت زفرة عميقة المدى، في حين لاحت من أشرف التفاتة تجاه الرجل الميت، قال:

– يبدو أنك تمكنت من إسقاط واحد منهم.

– وسأسقط البقية تباعًا، اسمع، لن نسمح لهم بأخذ المبادرة، سنواصل أنا وأنت تقدمنا إلى الأعلى ونقضي عليهم، لن يتوقعوا قدومنا بهذه السرعة بعد الانفجار، سنتمكن من مباغتتهم قبل أن يدبروا لأمر آخر.

قال أشرف وهو ينحني ليتفحص جثة الرجل:

– لطالما كنتَ الأكثر ذكاء وشجاعة من بيننا جميعًا.

رمقه صفوت بنظرة مستغربة، وحاول أن يحلل سبب هذه العبارة التي جاءت في غير وقتها، ثم تجاهل الأمر برمته، قال:

- لنتحرك بسرعة.

تابع أشرف وهو يأخذ السلاح من يد الرجل الميت:

- أتعرف شيئًا؟ لطالما كنتُ أحسدك، كنتَ دائمًا ما تتقدم عليَّ بخطوة.

- أشرف، لنؤجل هذا الكلام لوقت لاحق، ما زال أمامنا عمل غير منجز.

التفت أشرف باتجاه صفوت وهو يقول:

- أنت محق، لدينا عمل لننهيه، لكن هذه المرة سأنهيه وحدي.

كانت هذه إحدى المرات النادرة التي يخطئ فيها صفوت تقدير ما يجري أمامه، لكن حينما فهم المغزى من حديث صديقه كان قد تأخر، رفع سلاحه محاولًا أن يستبق الأحداث لكن أشرف كان مستعدًا، أطلق عدة رصاصات اخترقت رقبته وصدره.

راقبه بهدوء في حين كان ينهار على الأرض لافظًا آخر أنفاسه، ثم اقترب منه سريعًا وتأكد من أنه قد فارق الحياة قبل أن يعيد السلاح إلى يد الميت مرة أخرى.

الجريمة الكاملة، قال لنفسه معلقًا وهو يتأمل جثة صفوت مرة أخيرة قبل أن يغادر الغرفة ليلعب دور البطولة منتقمًا لأعز أصدقائه، صادف اثنين من أفراد فريقه عند باب الشقة، لبس عباءة الغضب سريعًا وهو يهتف متوعدًا:

- لقد قتلوا صفوت أيضًا، لكننا سننتقم له سريعًا، سنقضي على الأوغاد الآن.

25

أَزِفَت الساعة. انتفضت الأرض فجأة، وبدأت الجدران السوداء تهتز بعنف.

لينا صرخت بفزع، في حين تلفت أشرف حوله بحثًا عن مخرج بحركة تلقائية تكررت كثيرًا قبل أن يدرك مجددًا أن لا حول له ولا قوة، لكن الآن لديه من يمكن أن يوجه غضبه نحوه. هدر صوته عاليًا ليطغى على صوت الجدران التي كانت تتمايل من دون أن تسقط:

– ما الذي تدبرون له الآن؟

أجابت بهلع:

– قلت لك إنني لا أعرف.

حينها لم يجد سوى الانتظار وهو يراقب السقف القريب الذي بدا أنه سينهار في أيِّ لحظة. ثم بدأت الأفكار تنهال على رأسه. لو كان مجرد زلزال فيفترض ألا يدوم طويلًا، هو مجرد غضب أرضي عابر وسيزول سريعًا. ثم إنه ليس ميتًا مثلما تدعي هذه البلهاء، لو كان ميتًا لما شعر بالهزة.

الهزات طال مداها، يعرف أن الزلازل قد تستمر لدقيقة أو دقيقتين ولكن الدقائق توالت، والفتاة لا تكف عن الصراخ بين الفينة والأخرى، أيعقل أنها تدَّعي الخوف؟ وأن هذا الزلزال هو عمل مصطنع شأنه شأن كل شيء آخر؟ لا يمكن أن يموت، هي خدعة أخرى، خدعة كبيرة جدًّا. توتره تحول من الخوف والقلق إلى العدائية، صرخ بما تبقى لحنجرته من قوة:

– لن أخاف منكم، هل سمعتم؟ لن تخيفوني أبدًا.

ما إن انتهى من عبارته الأخيرة حتى توقف كل شيء عن الحراك، واستعاد السكون سيادته على المكان. عندها لم يتمالك نفسه، دخل في نوبة ضحك، نبرة صوته كانت أقرب إلى الانتصار منه إلى الاستسلام والإقرار بالهزيمة، لينا أبعدت كفيها عن وجهها بحركة بطيئة وحدقت إليه.

مستهتر ولا يدرك مقدار الخطر الذي يحيط به، هكذا فكرت، ليذهب إلى الجحيم بأيِّ حال، فهو النهاية الطبيعية لأمثاله، لكن ينبغي لها أن تقلق على نفسها.

مدعية كاذبة، هكذا فكر، لن يسكت، آه، سيكون حسابًا عسيرًا، لن يتمكنوا من إخافته بعد الآن، ليس وقد فهم كل شيء. جال بعينيه مجددًا بحثًا عن الكاميرات التي تختفي في السواد. كيف فعلوها؟ لا يهم، لا داعي لأن يفهم الكيفية، المهم أنه كشف اللعبة.

اتكأ بظهره إلى الحائط وقد انتابه شعور مختلف، كان يشعر بالارتياح، لن يكونوا قادرين على إيذائه، كل ما في الأمر هو أنهم حاولوا إنجاز المهمة المستحيلة، لكنه لا ينكر إعجابه بالأمر. قال معلنا:

- أهنئكم، عمل جيد جدًّا برأيي.

حين نظرت إليه، كان الارتباك والقلق يسودان وجهها.

- أخبريني إذن، أيٌّ من الأفلام الهوليودية ذاك الذي أوحى إليكِ أنتِ ورفاقك بهذه الفكرة؟ لا أنكر أنكم نجحتم في خداعي لبعض الوقت، وتقنياتكم متطورة للغاية.

تأمل المكان من حوله بنظرة مختلفة هذه المرة، كما لو كان متيقنًا من أنهم يراقبونه من خلف هذه الجدران.

- هل هذا ما كنتِ تسعين خلفه.. الحصول على اعتراف مني عن طريق التحايل والخداع؟

هز رأسه إعجابًا بما توصل إليه، تابع بجزل:

- هل هي تجربة شبيهة بالعوالم البديلة، من تلك الأشياء التي تُزرَع في رأس الشخص ليتخيل وجود أحداث لم تحصل معه مطلقًا؟

لكن لينا كانت قد توقفت عن الاستماع إليه منذ بعض الوقت، تركيزها بأكمله كان منصبًّا على مكان آخر. الشهقة التي خرجت منها دفعته إلى التوقف عن الكلام كليًّا.

لينا وقفت على قدميها فجأة لتحاول الفرار، لكنها لم تفلح بسوى قطع مسافة لا تزيد على متر واحد قبل أن تعيقها السلسلة لتسقط على وجهها، لم يكن لديها الوقت لتتأوه، أمسكت بالسلسلة بكلتا يديها وحاولت جاهدة أن تتخلص منها، في حين ظل يراقبها بعينين مفتوحتين على اتساعهما وقد تجمدت ملامحه مثل مكعب ثلج. حين رفعت رأسها إلى الأعلى ازداد فزعها أضعافًا، كررت محاولاتها باستماتة، كانت على وشك أن تخلع ذراعها من موضعها.

اللعنة، لا يُعقل، حدث نفسه مجددًا، لن تتمكن من تزييف كل هذا الذعر. سألها بحذر:

- ماذا هناك؟

لكنها لم تُجِب، كان هناك ما يشغلها عنه وعن كل شيء آخر في العالم. أمسكت السلسلة وبدأت تعضها بأسنانها بهستيريا وهي تنظر إلى الأعلى بين الفينة والأخرى، حينما نظر بدوره لم يشاهد أيَّ شيء.

- ما الذي ترينه؟

لم يتلقَّ إجابة، ولم يسمع سوى صوت احتكاك المعدن بأسنانها. كرر بإلحاح شديد:

- لينا، ما الذي ترينه؟

لكن الرد جاء على هيئة همهمات غير مفهومة قادمة من الأعلى.

نظر إلى الفراغ وهو يرتعش، سألها:

- ما هذا؟

عند هذه اللحظة استسلمت لينا تمامًا، قالت ودموعها تنزل منها بغزارة:

- إنها النهاية، لا يوجد مفر.

- لا يوجد مفر؟ لم أفهم، ماذا تقصدين بـ...

توقفت الكلمات في حلقه وهو يراقب ظلالًا بيضاء تهبط من الأعلى لتحيط بها من كل الاتجاهات، تراجع إلى الخلف مذعورًا حتى التصق ظهره بالحائط، صرخ بصوت محشرج بالكاد خرج من حلقه الذي تحول إلى صحراء قاحلة:

- ما الذي يحدث بالضبط؟

راقب لينا وهي تستلقي على الأرض، كان جسدها يرتعش كما لو أنها تعرضت إلى نوبة صرع، الظلال الشفافة اقتربت منها حتى كادت أن تلتصق بها، ثم بدأت اختلاجاتها تقل تدريجيًّا حتى هدأت تمامًا، والهمهمات لم تعد مسموعة. راقبها وهي تحرك شفتيها وتتكلم بصوت غير مسموع كأنها تتحدث مع نفسها، ثم رآها وهي تبتسم!

مجددًا يُصاب بالذهول، تخلى عن جبنه وتقدم إلى الأمام أكثر ليتأكد، كانت تبتسم فعلًا وقد زال عن وجهها كل أثر للرعب الذي استحوذ عليه في الدقائق الماضية. في وقت كان عقله فيه يتناوب ما بين القلق والارتياح، ويحاول جاهدًا أن يبحث عن تفسير لما يحصل، فإن المشهد الذي رآه تاليًا كان أكبر من أيِّ ابتكار أو خدعة يمكن أن تخطر بباله، كان أمرًا عصيًّا على الاستيعاب.

بوجه مشدوه وبعينين بارزتين ومفتوحتين على اتساعهما، راقبها وهي تتحرر من قيدها بسلاسة، وراقب جسدها وهو يصعد إلى الأعلى، ما زالت تبتسم، وجهها مشرق كأن قمرًا حلَّ فيه، هالة من نور غلَّفتها مثل كرة بلورية، والظلال الشفافة تحيط بها من كل الجهات كـأنها تحاول أن تحجب عنها سواد المكان.

استمر الموكب المضيء في صعوده حتى اخترق السقف ثم تلاشى كأن لم يكن.

تناوب على فتح عينيه وإغماضهما، لكنه لم يكن يحلم، لقد اختفى جسد لينا، بهذه البساطة، كيف فعلوها؟ ما هذه التقنيات التي مكنتهم من القيام بكل هذه الأشياء

الغريبة.

كيف اختفت لينا؟ لقد رآها بأم عينه، تجاوزت السقف كأنها شبح، لقد صعدت...

عند هذه اللحظة فهم كل شيء، كرر العبارة بينه وبين نفسه، لقد صعدت إلى الأعلى، إلى السماء. عادت إليه الذاكرة بكل محتوياتها، المؤامرات، الإرهاب، جرائم القتل التي كان يرتكبها للتغطية على جرائمه الأخرى وللتسلية في الوقت نفسه، تنكره المتقن على هيئةٍ شيطانيةٍ، المتعة التي كانت تنتابه وهو يرى الرعب في وجوه الآخرين قبل أن يقضي عليهم، السادية وغرف التعذيب التي كان يديرها، استمتاعه بإيذاء البشر واستعبادهم وقتلهم. تورطه مع الجماعات الإرهابية، الأسلحة والقنابل المهربة التي باعها لهم بأضعاف ثمنها، الصفقات التي وضعته ضمن خانة الأثرياء، ثم انقلابه عليهم وتلفيق تهمة التآمر لأشخاص أبرياء ومراقبتهم وهم يموتون شنقًا، قتله أعز أصدقائه بدافع الغيرة لمجرد أن يحل محله، قتله للمحامي الذي كان قريبًا من أن يكشف أمره مع زوجته التي لا ذنب لها وقيامه بإحراق المكان، البنت الصغيرة التي حالفها الحظ ونجت من الحريق واضطراره إلى أن يلعب دور البطل وينقذها بعد أن فاتته الفرصة لقتلها، الحارس الذي رشاه كي لا يذكر أنه رآه وهو يدخل إلى العمارة بكامل هيئته قبل أن يلبس زيه التنكري في المصعد، ثم لحاقه به بعد شهور إلى القرية التي يقطن فيها وقتله بإبرة مسمومة مع أنه لم يكن مضطرًّا إلى ذلك، قَتْلُ صديقه ماجد الذي كان على وشك أن يشي به لذلك الصحفي الذي أحرق نصف وجهه، الثراء والسلطة والمؤامرات الخفية والتسلق على أكتاف الآخرين، الإيقاع بالصحفي الهارب بعد سنوات طويلة وتعذيبه، لينا التي ظهرت أمامه فجأة لتنتقم لمقتل والديها وإقدامه على قتلها دون رحمة على الرغم من أنها عدلت عن قتله.

ثم، وفاته هو بعد دقيقة بنوبة قلبية. وعند هذه اللحظة فقط، فهم كل شيء.

لينا ميتة، وهو أيضًا ميت.

لينا صعدت إلى السماء، وهو...

هل يعقل أن...

صدَمَته الفكرة مثل سقوط في بركة متجمدة.

لقد قضى حياته ملحدًا لا يؤمن إلا بالثروة والقوة، لم يعتقد أنه سيموت في أيِّ يوم، لكن الخلود كان خرافة كبيرة، هل فات الأوان؟ هو مستعد لأن يعلن توبته، هو...

فات الأوان.

في اللحظة التالية أدرك أنه لم يرَ أيَّ أهوال بعدُ.

الخاتمة

رمق وكيل النيابة الرجل الضخم الذي يقف أمامه بالكثير من الشك، كرر سؤاله بنبرة جافة:

- تريد إقناعي حقًّا بأنك لا تعرف هوية الفتاة الميتة بالداخل؟

قال ياسين وهو يحرك أصفاده إلى الأعلى:

- لا أعرفها، أقسم لك، يا سيدي، لماذا تضعون الأصفاد في يدي؟

قال وكيل النيابة:

- الأمر ببساطة هو أنك المشتبه به الأول لدينا.

- لكن أنا الذي أبلغت عن الحادثة.

- هذا ليس كافيًا لنفي الشبهة عنك، قل لي، منذ متى تعمل مع السيد أشرف؟

- منذ أن تقاعد من القوات الخاصة، أحضرني معه لأدير فريق الحراسة الخاص به.

- أها، وأين كنتَ حضرتك حين حدث ما حدث؟

تردد ياسين ولم يجد إجابة سريعة، في حين ابتسم وكيل النيابة بثقة، ثم قال:

- تأكد بأننا سنعرف كل شيء لاحقًا.

حضر أحد رجال الشرطة من داخل الفيلا وطلب من وكيل النيابة أن يلتحق به، وحينما خطا الأخير إلى الداخل أخبره الطبيب الشرعي بأن هنالك جريمة قتل مؤكدة، هناك كسر في العظم اللامي، الفتاة قد تعرضت للخنق بما لا يقبل الشك.

أومأ وكيل النيابة موافقًا، تأمل وجه الفتاة للمرة الأخيرة قبل أن يسدل عنها الغطاء، قال:

- لِمَ يُخيَّل إليَّ أنها تبتسم؟

أجابه الطبيب:

- الله أعلم، لولا الكدمات على رقبتها لخمنت أنها تعيش أحداث حلم سعيد، لكن ليس بإمكاني أن أقول الشيء نفسه بالنسبة إلى أشرف بيك.

قطع وكيل النيابة الخطوات القليلة التي تفصله عن جثة أشرف ونظر إلى وجهه، لكنه لم يتمكن من الاستمرار بذلك، كان وجه أشرف قد تحول إلى اللون الأزرق بسرعة عجيبة، عيناه جاحظتان ومعالم رعب طاغٍ ترتسم على وجهه الخالي من الحياة.

أشاح بوجهه بعيدًا وهو يستعيذ من الشيطان الرجيم، سأل:

- يبدو مثل شخص رأى شيطانًا قبل أن يموت.

قال الطبيب:

- الغريب يا سيدي أن أشرف بيك مات ميتة طبيعية.

- ميتة طبيعية؟

- هذا ما يشير إليه الفحص الأوّلي، لقد تعرض لنوبة قلبية أودت بحياته، لكننا سنتأكد أكثر من خلال التشريح، ربما يكون قد تعرض لسم من نوع ما.

تركه وكيل النيابة وسار باتجاه ضابط البحث الجنائي الذي قدم له تصورًا للأحداث.

- استجوبنا الرجلين اللذين كانا يحرسان البوابة، يدَّعيان بأن الفتاة الميتة خدَّرتهما.

- كيف؟

- قدمت لهما مشروبًا باردًا، وذهبا بعدها في النوم فورًا، على الأغلب أنها دست لهما مخدرًا، لقد تأكدنا من وجود عربة لبيع العصير متروكة في الخارج فعلًا.

- إذن الفتاة خدرت الحراس كي تتمكن من التسلل إلى الداخل.

- أفترض بأنها حضرت لتقتل السيد أشرف، وأن المسدس الذي عثرنا عليه عائد لها، يحتمل أنها تراجعت عن القيام بما عزمت عليه أو أن السيد أشرف تمكن من مغافلتها وقتلها، بعدها أصيب بنوبة قلبية.

هز وكيل النيابة رأسه تعجبًا، قال:

- سبحان الله، لو صبر القاتل على المقتول لمات وحده، يبدو أنه مقدر لي أن أحقق في الجرائم الغريبة، السنة الفائتة شهدت مجزرة غريبة في فيلا بسبب مسابقة وهمية، والآن هذه الجريمة التي يموت فيها الضحية وحده بعد أن ينجح في الدفاع عن نفسه.

أطلق زفرة، ثم قال:

- لكن لماذا حاولت الفتاة أن تقتل أشرف بيك؟

أجاب الضابط:

- ما زلنا لا نعلم أيَّ شيء عن الدوافع المحتملة، لكننا سنكتشف كل شيء من خلال التحقيقات.

في اللحظة التالية أدرك أنه لم يرَ أيَّ أهوال بعد.

تراجع أشرف مذعورًا في حين كانت الأرض تنشق من تحته لتصنع هوة عميقة في منتصف الغرفة، راقب ألسنة اللهب التي كانت تفور من أسفل الحفرة بهلع عارم، وبدأ يصرخ فزعًا وهو يحدق إلى تلك الظلال السوداء التي كانت تخرج من الحفرة تباعًا، أحاطوا به من جميع الجهات غير عابئين بصراخه الذي تحول إلى توسلات بأن يدعوه وشأنه، وحين بدؤوا في الهمهمة لاذ بالصمت.

تلقى الأسئلة لكنه لم يكن يمتلك أيَّ إجابة صحيحة. حررته الظلال من السلسلة المحيطة بقدمه، أمسكته بأيدٍ غير مرئية وجرته باتجاه الحفرة التي كانت تلفظ نيرانها بغضب عارم.

توسل مجددًا:

- انتظروا، أرجوكم، أنا لديَّ القوة، لديَّ المال، لديَّ السلطة، لديَّ...

لكن صوته ضاع بين طيات الجدران الغامقة. حاول أن يتشبث بالسلسلة التي كان يكافح سابقًا للتخلص منها لكنه لم يفلح، مجددًا يطلق لصراخه العنان، بدأ يشعر بأولى ألسنة اللهب تلفح قدميه، تحول صراخه إلى عويل في حين أن جسده ينزل في الحفرة بدءًا بقدميه ثم بجذعه وصدره حتى لم يتبقَّ سوى رأسه ويديه، محاولة أخيرة ويائسة للتمسك بأيِّ شيء لكنها تبوء بالفشل، جرَّته الظلال معها إلى الحفرة حتى اختفى بداخلها تمامًا ولم يخلف وراءه سوى آثار أظفار ظهرت على شكل خطوط رفيعة دامية، ثم انغلقت الحفرة لتكتم آخر صرخاته، وعادت الأرض مثلما كانت كأن شيئًا لم يكن.

الهيئة التي كان عليها أشرف عادت لتداعب أفكار وكيل النيابة، رمقه مجددًا من مسافة بعيدة، في حين كان رجال الإسعاف يضعونه على المحفة تمهيدًا لنقله إلى المشرحة، تساءل مجددًا:

- ترى ما سر هذا الذعر الذي يحتل قسمات وجهه؟

لكن الضابط لم يكن يملك إجابة، اكتفى بالقول:

- الله أعلم.

تمت بحمد الله